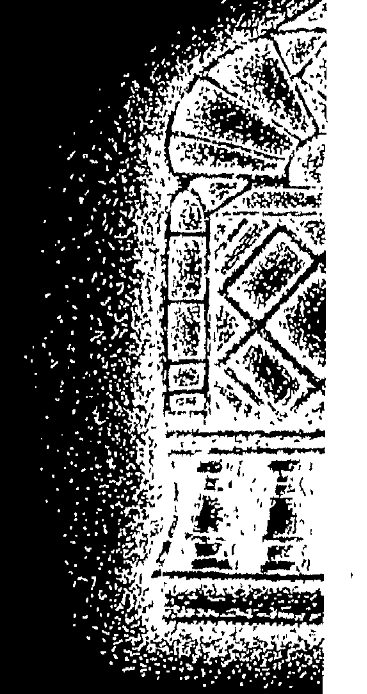
المدينة في العصر الوسيط

قضايا ووثائق من تاريخ الغ

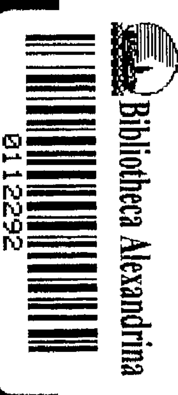
عبد الأحد السبتي

حليمة فرحات





المركز الثقافي العر



المدينة في العصر الوسيط

قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي

* المدينة في العصر الوسيط (قضايا ووثائق من تاريخ المغرب الإسلامي)
الغرب
* تأليف: عبد الأحد السبتي وحليمة فرحات
* الطبعة الأولى، 1994.

* الناشر: المركز الثقافي العربي.
* العنوان:
□ بيروت/الحمراء ـ شارع حان دارك ـ بناية المقدسي ـ الطابق الثالث.
* ص.ب/113-5158/ * هاتف/343701-352826/ * تلكس/NIZAR 23297LE/

□ الدار البيضاء/ ● 42 الشارع الملكي ـ الأحباس * ص.ب/4006/ * هاتف/307651-303339/
● 28 شارع 2 مارس * هاتف /271753 - 276838/ * فاكس /305726/.

المدينة في العصر الوسيط

قضايا ووثائق من تاريخ الغرب الإسلامي

عبد الأحد السبتي
حليمة فرحات

المركز الثقافي العربي

تنبيهات

يلاحظ القارىء تفاوتاً ملموساً في حجم النصوص المقترحة، وذلك لأننا لم نلتزم دائماً بالتقطيع الذي اتبعه المؤلفون في الكتب الأصلية (فصول، فقرات)، بل عمدنا إلى تقطيع وتركيب يوافقان شبكة المواضيع التي تظهر في الفهرس التفصيلي للنصوص. وهذا ما جعلنا لا نتدخل إلا نادراً، في شكل هوامش توضح سياق النصوص عند الضرورة.

وقد حذفنا هوامش تحقيق النصوص لأنها تتضمن رموزاً وأنماطاً من الإحالات قد تختلف من محقق إلى آخر. واحتفظنا برسم الكلمات الذي اتُبع عند النشر الأصلي للنصوص، وهو رسم يختلف أحياناً عمَّا تعوَّد عليه القارىء.

وفيما يخص المعلومات البيبليوغرافية، فضلنا إيرادها باقتضاب عبر محتويات الملف، وتفصيلها في اللائحة الواردة في آخر الكتاب، حيث أضفنا الإشارة إلى العصر الذي عاش فيه المؤلفون، وهو توضيح ضروري نظراً لاتساع الفترة الزمنية التي تغطيها النصوص.

تاريخ المدينة المغربية ميدانٌ لا زال في الحاجة إلى المزيد من البحث والتنقيب، وخلافاً لما هو شائع، فإن الغموض لا زال يكتنف كثيراً من جوانبه، بل لا نبالغ إذا قلنا إن البحث الحديث لم يضف الكثير إلى ما أنجزه مؤرخو الحقبة الاستعمارية. وإذا اقتصرنا على العصر الوسيط بشكل خاص، فإننا نواجه ضآلة وبطء البحث الأركيولوجي وضعف الوسائل المادية والبشرية الموفَّرة له، مع أنه مؤهل للإجابة على العديد من الأسئلة المطروحة. ونواجه كذلك، في مستوى الشواهد المكتوبة، ندرة الوثائق غير المقصودة من مستندات ومراسلات وسجلات اقتصادية، وغياب جملة من المؤلفات التي وضعت حول تاريخ مدن مثل نكور وتازة وسجلماسة وسبتة؛ وهي مؤلفات اقتبست منها كتب لاحقة أو ظلت إلى حد الآن مجرد عناوين نجهل فحواها.

والحديث عن مدن العصر الوسيط قد يرتبط في ذهن كثير من القراء، بالحواضر التي استمر إشعاعها بعد ذلك العصر، مثل فاس ومراكش ورباط الفتح. وقد يغفل أو يتجاهل المدن المتوسطة والصغرى، أو تلك المدن التي اندرست أو تضاءل دورها بعد أن لعبت أدواراً هامة في سيرورة التمدين وفي تشكل الشبكة الحضرية المغربية. فمن القراء من يجهل مثلاً أن سجلماسة كانت، من الوجهة الكرونولوجية، أول حاضرة إسلامية أسست بالمغرب الأقصى وعاصمة دولة بني مدرار الصفريين؛ وأن سبتة كانت أهم مركز ثقافي خلال العصر المرابطي، وأحد الموانىء الهامة على مستوى حوض البحر الأبيض المتوسط.

يحاول هذا الكتاب أن يخاطب نوعين من المتلقين. فهناك عموم القراء الذين سوف يجدون، من خلال النصوص المقترحة، عناصر شيقة ومدخلاً حياً إلى

ماضي المدينة: لوحات من النشاط الاقتصادي، أحداث معبرة، نماذج اجتماعية، وغير ذلك من المواد التي يعسر الحصول عليها دون بذل الجهد المضني عبر منعرجات مصادر الفترة المدروسة.

أما القارىء المتخصص، ونعني الطالب أو الباحث في مجال التاريخ الوسيط أو التاريخ الحضري، فإن محاورته تنطوي على أبعاد أخرى. لقد قادتنا تجربة التدريس والبحث إلى الشعور بضرورة وضع **ملفات توثيقية إشكالية** تجمع بين مجهود رصد النصوص وبين اقتراح قضايا من شأنها أن تغني المناقشات الدائرة ـ أو الغائبة ـ داخل حقل التاريخ الحضري. وبذلك قد نتفادى منزلق اختزال الظاهرة التاريخية في نماذج نظرية مبسطة لا تستند إلى ما يكفي من الاستشهاد والأدلة، ونتجنب في آن واحد ذلك المنزلق الآخر الذي يلغي فائدة الفرضيات والإشكاليات، ويختصر دور الباحث في العمل التوثيقي الصرف؛ وبذلك يتم ـ دون قصد أحياناً ـ تفقير استغلال المصادر نتيجة لفقر الأسئلة المطروحة عليها. فمن المؤسف مثلاً أن يخوض المؤرخ في قضايا تاريخ المدينة المغربية دون الالتفات إلى المقاربات التي أنجزت حول ثوابت المدينة العربية ـ الإسلامية أو ملامح المدينة الغربية الوسيطية. ذلك أن المقارنة تساعد على صياغة المفاهيم والتعرف على الخصوصيات.

يلاحظ القارىء، من خلال فهرس محتويات هذا الملف الوثائقي التركيبي، أننا لم نسع إلى الإحاطة المفتعلة بكافة عناصر الموضوع، بل فضلنا التركيز على محاور معينة، وهي على التوالي: التمدين وقضايا التأسيس، المدينة والحكم، جوانب اقتصادية، البنية الاجتماعية، التمدين وتراجع التمدين. فبينما يتصل البابان الأول والخامس بمسار التمدين مع ما عرفه من تقطع وما انتهى إليه من تراجع كبير مع الأزمة الشاملة التي بدأت في منتصف القرن 14 م، تنصب الأبواب الأخرى على ظواهر بنيوية تتمثل في مستويات التمفصل بين المدينة والكيان السياسي، وعناصر وشروط أنشطة الإنتاج والتبادل، ومكونات النسيج الاجتماعي الحضري.

وقد راعينا، في انتقاء وتبويب النصوص، الاعتبارات التالية:

1 ـ **أنواع المصادر**، حيث راعينا التعدد. فإلى جانب التأليف الجغرافي والأخباري، نجد نصوصاً من كتب المناقب والأنساب والفقه، بل أوردنا نصوصاً

تنتمي إلى جنس الرسائل (ابن عباد) أو العلوم الطبيعية (التفاشي).

2 ـ **تعدد الروايات.** تهم هذه النقطة، بشكل خاص، موضوع تأسيس المدن، حيث كشفت أبحاث جادة حول بدايات فاس ومراكش ورباط الفتح، أن الروايات الشائعة، والتي رسختها المصادر المتداولة خلال العصر الوسيط وبعده (مثل **روض القرطاس والعبر والاستقصا**)، لا تصمد أمام ما أوردته بعض المصادر «الهامشية» التي كانت، على العموم، أقرب زمنياً من فترات تأسيس المدن المذكورة. ففي هذه الحالات، طرحنا عينات من الروايات المتضاربة حول الحدث الواحد.

3 ـ **الشواهد النموذجية.** ونعني بها حالات يندر ورودها في النصوص، لكنها تكتسي، بسبب ندرتها بالذات، أهمية قصوى في التعريف بظواهر عامة. ويتعلق الأمر، على الخصوص، بشخصيات أو بيوتات تشخص مستويات التركيبة الاجتماعية الحضرية، مثل بيوتات الحكم المحلي، والشبكات التجارية العائلية، وأعيان الأشراف. على أننا نسجل هنا فقر المعطيات بالنسبة لفئات عامة المدينة.

4 ـ **المصطلح**. لا يخلو تاريخ الكلمات من أهمية، لأنه يحيلنا على تصورات ومرجعيات ثقافية، ويجنبنا الالتباس الزمني. هذا هو ما جعلنا ندرج فقرات من مادتي «مدن» و«مصر» من **لسان العرب** لابن منظور. كما أن علاقة المدينة بالحكم تضعنا أمام غياب مصطلح «عاصمة» والحضور الملفت لكلمة «قاعدة» في مستويات متعددة، من الأعلى ـ دار أو كرسي الملك ـ إلى الأسفل حيث القاعدة المحلية. ومن جهة أخرى هناك كثير من الألغاز التي تحيط بأسماء المدن ـ حيث ضرورة الدراسة الطوبونيمية ـ كما تحيط بالمؤسسات الاجتماعية، إذ لم نلتق مثلاً، في نصوص العصر الوسيط، بتسمية معينة للهيئات الحرفية، من قبيل كلمة «حنطة» التي يرجع تداولها إلى فترات لاحقة.

5 ـ **مراجعة المسلمات.** لقد كان هاجسنا الأساسي هو إعادة النظر في بعض الأحكام المبسطة السائدة، واقتراح زوايا جديدة مع إثارة الانتباه باستمرار إلى تعقد الظاهرة الحضرية في المغرب الوسيط.

ففيما يخص سيرورة التمدين على سبيل المثال، وضعنا القارىء أمام نماذج من التمدين الذي لم يكن دائماً نتيجة إرادة سياسية، بل كان ينطلق أحياناً من تطورات محلية وعبر أشكال انتقالية متعددة، على غرار التطور الذي مرت به مدينة مكناسة

الزيتون قبل تسويرها عند نهاية الحكم المرابطي.

ونلمس نفس التعقيد في علاقة المدينة بالحكم. فالعصر الوسيط شهد في البداية مرحلة ساد فيها نموذج المدينة ـ الإمارة، وتشكلت فيها شبكة حضرية تجارية اتسمت بالتبادل رغم الانقسام والصراع العسكري في بعض الأحيان. وقد يسرت هذه الشبكة، خلال القرن 11 م، عملية الانتقال إلى سيادة الدولة المركزية مع انتصار العصبية اللمتونية المستندة إلى الدعوة المرابطية. وتطرح هذه المرحلة بدورها قضايا أخرى مثل استمرار تجربة الحكم الذاتي في بعض المدن وفي بعض السياقات السياسية، مثل قيام بني العزفي بسبتة عند تفكك حكم الموحدين. وتؤكد بعض النصوص عدم إجرائية مفهوم «العاصمة» بمعناه الحديث، إذ تميزت السلطة بتنقل دائم أملته، ولا شك، شروط جغرافية ورمزية لم يتناولها الدارسون بما يكفي من العناية.

ومن هنا تأتي أهمية عدد من النصوص السردية المتداولة في مجال التاريخ السياسي الحدثي، مثل أخبار الحركات وتنقل السلاطين، وهي نصوص تتخذ على ضوء الفرضيات الجديدة دلالات بنيوية تنتظر المزيد من التعميق. وتنطبق نفس الملاحظة على ما سجلته كتب الأخبار من أحداث احتلال المدن من طرف العصبيات التي كانت في طور الاستيلاء على الحكم المركزي، أو أحداث انتفاض المدن لهذا السبب أو ذاك. على أن هذه النصوص السردية تتضمن بين ثناياها إشارات ثمينة تهم بعض مكونات البنية الحضرية في المستوى السياسي ـ الاجتماعي، مثل آليات بروز الزعامات ومختلف أشكال التضامن والالتحام التي ربطها ابن خلدون بنشأة العصبية في الأمصار.

* * *

وفي الختام، نذكر بأن هذا الملف يطمح إلى إثارة ملفات أخرى، كما أنه يرغب في المساهمة في ترسيخ حقل تاريخ المدينة المغربية، وهو حقل سوف يستفيد، على غرار كل حقول البحث في العلوم الإنسانية، من التفاعل والحوار الضروريين بين المجهود المونوغرافي الذي يركز على الحالات المحددة، وبين المقاربة التركيبية التي تعتمد طرح القضايا العامة.

الباب الأول

التمدين وقضايا التأسيس

الفصل الأول

تعريفات

1 ■ في مصطلح المدينة

مدن: مَدَنَ بالمكان: أقام به، فعل مُمات، ومنه المدينة، وهي فعيلة، وتجمع على مدائن، بالهمز، ومُدْنٍ ومُدُن بالتخفيف والتثقيل؛ وفيه قول آخر: أنه مفعلة من دِنْتُ أي مُلِكْتُ؛ قال ابن بري: لو كانت الميم في مدينة زائدة لم يجز جمعها على مُدْنٍ. وفلان مدَّن المَدائن: كما يقال مَصَّرَ الأمصار. قال: وسئل أبو عليّ الفسوي عن همزة مدائن فقال: فيه قولان، من جعله فعيلة من قولك مَدَنَ بالمكان أي أقام به همزه، ومن جعله مفعِلة من قولك دِينَ أي مُلِكَ لم يهمزه كما لا يهمز معايش. والمدينة: الحصن يبنى في أُصطُمَّةِ الأرض، مشتق من ذلك. وكل أرض يبنى بها حِصْنٌ في أُصطُمَّتِها فهي مدينة، والنسبة إليها مَدِيني، والجمع مدائن ومُدُنٌ. قال ابن سيده: ومن هنا حكم أبو الحسن فيما حكاه الفارسي أن مدينة فعيلة. الفراء وغيره: المدينة فعيلة، تهمز في الفعائل لأن الياء زائدة، ولا تهمز ياء المعايش لأن الياء أصلية. والمدينة: اسم مدينة سيدنا رسول الله ﷺ، خاصة غلبت عليها تفخيماً لها، شرَّفها الله وصانها، وإذا نسبت إلى المدينة فالرجل والثوب مَدَنيٌّ، والطير ونحوه مَدِيني، لا يقال غير ذلك. قال سيبويه: فأما قولهم مدائني فإنهم جعلوا هذا البناء اسماً للبلد، وحمامة مدينيَّة وجارية مدينيَّة. ويقال للرجل العالم بالأمر الفَطِنِ: هو ابن بَجْدَتِها وابن مدينتها وابن بلدتها وابن بُعْثُطها وابن سُرْسُورها.

[ابن منظور، لسان، ج 13. ص 402]

2 ■ في مصطلح المصر

والمِصْرُ: الحد في كل شيء، وقيل: المصر الحد في الأرض خاصة.

الجوهري: مصر هي المدينة المعروفة، تذكر وتؤنث؛ عن ابن السراج. والمِصْر: واحد الأمصار. والمصر: الكورة، والجمع أمصار. ومصَّروا الموضع: جعلوه مصراً. وتمصَّر المكان: صار مصراً. ومصر: مدينة بعينها، سميت بذلك لتمصُّرها، وقد زعموا أن الذي بناها إنما هو المصر بن نوح، عليه السلام؛ قال ابن سيده: ولا أدري كيف ذاك، وهي تُصْرفُ ولا تُصْـرَفُ. قال سيبويه في قوله تعالى: اهبطوا مصراً؛ قال: بلغنا أنه يريد مصر بعينها. التهذيب في قوله: اهبطوا مصراً، قال أبو إسحق: الأكثر في القراءة إثبات الألف، قال: وفيه وجهان جائزان، يراد بها مصر من الأمصار لأنهم كانوا في تيه، قال: وجائز أن يكون أراد مصر بعينها فجعل مصراً اسماً للبلد فصرف لأنه مذكر، ومن قرأ مصر بغير ألف أراد مصر بعينها كما قال: ادخلوا مصر إن شاء الله، ولم يصرف لأنه اسم المدينة، فهو مذكر سمي به مؤنث. وقال الليث: المصر في كلام العرب كل كُورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيءُ والصدقات من غير مؤامرة للخليفة. وكان عمر، رضي الله عنه، مصَّر الأمصار منها البصرة والكوفة. الجوهري: فلان مصَّر الأمصار كما يقال مدّن المُدُنَ، وحُمُرٌ مصارٍ. ومصاري: جمع مصري؛ عن كراع؛ وقوله:

وأدَمَتْ خبزيَ من صُيَيْرِ من صِيرِ مصرينَ أو البُحَيرِ

أراه إنما عنى مصر هذه المشهورة فاضطر إليها فجمعها على حد سنين؛ قال ابن سيده: وإنما قلت إنه أراد مصر لأن هذا الصير قلما يوجد إلا بها وليس من مآكل العرب؛ قال: وقد يجوز أن يكون هذا الشاعر غلط بمصر فقال مصرين، وذلك لأنه كان بعيداً من الأرياف كمصر وغيرها، وغلط العرب الأقحاح الجُفاة في مثل هذا كثير، وقد رواه بعضهم من صير مصرين كأنه أراد المصرين فحذف اللام. والمصران: الكوفة والبصرة؛ قال ابن الأعرابي: قيل لهما المصران لأن عمر، رضي الله عنه، قال: لا تجعلوا البحر فيما بيني وبينكم، مصِّروها أي صيروها مصراً بين البحر وبيني أي حداً. والمصر: الحاجز بين الشيئين. وفي حديث مواقيت الحج: لما فُتح هذان المصران؛ المصر: البلد، ويريد بهما الكوفة والبصرة. والمصر: الطين الأحمر. وثوب ممصر: مصبوغ بالطين الأحمر أو بحمرة خفيفة.

[ابن منظور، **لسان**، ج 5، ص 176]

3 ■ شروط المدينة

حسب ابن أبي زرع

وقالت الحكماء أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهي. النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والسور الحصين، والسلطان، إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها، وقد جمعت مدينة فاس هاذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها، وزادت عليها بمحاسن كثيرة نذكرها بعد إن شاء الله تعالا.

[ابن ابي زرع، قرطاس، ص 33]

4 ■ شروط المدينة

حسب ابن خلدون

اعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه؛ فتؤثر الدعة والسكون، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار. ولما كان ذلك للقرار والمأوى، وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها، وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها: فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعاً سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها. ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض. فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً، أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو لمناقع متعفنة أو لمروج خبيثة، أسرع إليها العفن من مجاورتها؛ فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة، وهذا مشاهد.

والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب. وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بإفريقية؛ فلا يكاد ساكنها أو طارقها يخلص من حمى العفن بوجه. ولقد يقال إن ذلك حادث فيها، ولم تكن كذلك من قبل. ونقل البكري في سبب حدوثه، أنه وقع فيها حفر ظهر فيه إناء من نحاس مختوم بالرصاص. فلما فُضَّ ختامه صعد منه دخان إلى الجو وانقطع. وكان ذلك مبدأ أمراض الحميات فيه. وأراد بذلك أن الإناء كان مشتملاً على بعض أعمال الطلّسمات لوبائه، وأنه ذهب سره بذهابه، فرجع إليها العفن والوباء.

وهذه الحكاية من مذاهب العامة ومباحثهم الركيكة. والبكري لم يكن من نباهة العلم واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أو يتبين خرقة فنقله كما سمعه.

والذي يكشف لك الحق في ذلك أن هذه الأهوية العفنة أكثر ما يهيئُها لتعفين الأجسام وأمراض الحْمَّيات ركودها. فإذا تخللتها الريح وتفشت وذهبت بها يميناً وشمالاً، خفت شأن العفن والمرض البادي منها للحيوانات.

والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة، وتحدث الريح المتخللة للهواء الراكد، ويكون ذلك معيناً على الحركة والتموج. وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معيناً على حركته وتموجه، وبقي ساكناً راكداً، وعظم عفنه وكثر ضرره. وبلد قابس هذه، كانت عندما كانت إفريقية مستجدة العمران، كثيرة الساكن تموج بأهلها موجاً. فكان ذلك معيناً على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه؛ فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض. وعندما خف ساكنها ركد هواؤها المتعفن بفساد مياهها، فكثر العفن والمرض. فهذا وجهه لا غير.

وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت، ولم يراع فيها طيب الهواء. وكانت أولاً قليلة الساكن؛ فكانت أمراضها كثيرة. فلما كثر ساكنها انتقل حالها عن ذلك. وهذا مثل دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد، وكثير من ذلك في العالم. فتفهمه تجد ما قلته لك.

وأما جلب المنافع والمرافق للبلد فيراعى فيه أمور: منها الماء، بأن يكون البلد على نهر، أو بإزائها عيون عذبة ثرَّة. فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة. ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولا بد لها من المرعى. فإذا كان قريباً طيباً، كان ذلك أرفق بحالهم، لما يعانون من المشقة في بعده. ومما يراعى أيضاً المزارع؛ فإن الزروع هي الأقوات. فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها، كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله. ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاء والطبخ. والخشب أيضاً ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم. وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية. إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول.

وهذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات، وما تدعو إليه ضرورة الساكن. وقد يكون الواضع غافلاً عن حسن الاختيار الطبيعي، أو إنما يراعي ما هو أهم على نفسه وقومه، ولا يذكر حاجة غيرهم، كما فعله العرب لأول الإسلام في المدن التي اختطوها بالعراق وافريقية؛ فإنهم لم يراعوا فيها إلا الأهم عندهم، من مراعي الإبل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح. ولم يراعوا الماء، ولا المزارع، ولا الحطب، ولا مراعي السائمة من ذوات الظلف، ولا غير ذلك؛ كالقيروان والكوفة والبصرة وأمثالها. ولهذا كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية.

ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر، أن تكون في جبل، أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد، تكون صريخاً للمدينة متى طرقها طارق من العدو. والسبب في ذلك أن المدينة إذا كانت حاضرة البحر، ولم يكن بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات، ولا موضعها متوعر من الجبل، كانت في غرة للبيات، وسهل طروقها في الأساطيل البحرية على عدوها وتحيفه لها، لما يأمن من وجود الصريخ لها. وأن الحضر المتعودين للدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة. وهذه كالإسكندرية من المشرق، وطرابلس من المغرب، وبونة وسلا. ومتى كانت القبائل والعصائب موطنين بقربها، بحيث يبلغهم الصريخ والنعير، وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها؛ كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها، لما يكابدونه من وعرها، وما يتوقعونه من إجابة صريخها. كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها. فافهم ذلك واعتبره في اختصاص الإسكندرية باسم الثغر من لدن الدولة العباسية، مع أن الدعوة من ورائها ببرقة وإفريقية؛ وإنما اعتبر في ذلك المخافة المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها. ولذلك ـ والله أعلم ـ كان طروق العدو للإسكندرية وطرابلس في الملة مرات متعددة. والله تعالى أعلم.

[ابن خلدون، عبر، ج 2، ص 617-621]

5 ـــــــــــــــ ■ شروط المدينة حسب ابن القاضي

حكي عن الحكماء أنها قالت: لا تستوطن إلا بلداً فيه سلطان حاضر، وطبيب

ماهر، ونهر جار، وقاض عدل، وعالم عامل، وأسواق قائمة، وقالت الحكماء أيضاً: أحسن المدن هي التي تجمع خمسة أشياء: نهر جار، ومحرث طيب، وحطب قريب، وسور حصين، وسلطان قاهر، إذ به صلاح أهلها وتأمين سبلها.

[ابن القاضي، **جذوة**، ج 1، ص 42]

6 ـــــــــــــــ ■ الأمصار في الآداب السلطانية

وأما الأمصار فهي الأوطان الجامعة، والمقصود بها خمسة أمور:

أحدها: أن يستوطنها أهلها طلباً للسكون والدعة. **والثاني**: حفظ الأموال فيها من استهلاك وإضاعة. **والثالث**: صيانة الحريم والحرم من انتهاك ومذلة. **والرابع**: التماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع وصناعة. **والخامس**: التعرض للكسب وطلب المادة. فإن عدم فيها أحد هذه الأمور الخمسة فليست من مواطن الاستقرار وهي منزل قيعة ودمار. قال الزبير بن العوام رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن البلاد بلاد الله، فحيث ما وجدت خيراً فاحمد الله وأقم.

وحظ السلطان في عمارة البلدان والأوطان أوفى من حظ رعيته، لأنه أصل هم فروعه، ومتبوع هم أتباعه.

والذي يعتبر في إنشائها ستة شروط؛ **أحدهما**: سعة المياه المستعذبة. **والثاني**: إمكان الميرة المستمدة. **والثالث**: اعتدال المكان الموافق لصحة الهواء والتربة. **والرابع**: قربه مما تدعو الحاجة إليه من المراعي والأحطاب. **والخامس**: تحصين منازله من الأعداء والزعار. **والسادس**: أن يحيط به سواد يعين أهله بمواده.

فإذا تكاملت هذه الشروط الستة في إنشاء مصر استحكمت قواعد تأبيده؛ ولم يزُل إلا بقضاء محتوم، وأجل معلوم.

ثم على منشىء المصر في حقوق ساكنيه ثمانية شروط؛ **أحدها**: أن يسوق إليه ماء السارية إن بعدت أطرافه، إما في أنهار جارية، أو حياض سائلة، ليسهل الوقوف إليه من غير تعسف. **والثاني**: تقدير طرقه وشوارعه حتى تتناسب ولا تضيق بأهلها، فيستضر المار بها. **والثالث**: أن يبني جامعاً للصلوات في وسطه ليقرب على جميع أهله ويعم شوارعه بمساجده. **والرابع**: أن يقدر أسواقه بحسب كفايته، وفي مواضع

حاجته. **والخامس**: أن يميز خطط أهله، وقبائل ساكنيه، ولا يجمع بين أضداد متنافرين، ولا بين أجناس مختلفين. **والسادس**: إن أراد الملك أن يستوطنه سكن منه في أفسح أطرافه، وأطاف به جميع خواصه، ومن يكفيه من أمر أجناده، وفرق باقيهم في بقية أطرافه؛ ليكفوه من جميع جهاته. وخص أهله بالعدل، وجعل وسطه لعوام أهله ليكونوا مكنوفين بهم، وليقل ركوبه فيهم حتى لا يلين في أعينهم. **والسابع**: أن يحوطهم بسور إن تاخموا عدواً، أو خافوا اغتيالاً حتى لا يدخل عليهم إلا من أرادوه، ولا يخرج عنهم إلا من عرفوه، لأنه دار لساكنيه، وحِرزٌ لمستوطنيه. **والثامن**: أن ينقل إليه من أعمال أهل العلوم والصنائع ما يحتاج أهله إليه حتى يكتفوا بهم، ويستغنوا عن غيرهم.

فإذا قام منشئه بهذه الشروط الثمانية فيه، فقد أدى حق مستوطنيه ولم يبق لهم عليه إلا أن يسير فيهم بالسيرة الحسنى، ويأخذهم بالطريقة المثلى؛ وقد صار من أكمل الأمصار وطناً، وأعدلها مسكناً.

والأمصار نوعان: مصر مزارع وسواد. ومصر **فرصة وتجارة**. فأما مصر المزارع والسواد فهو أثبت المصرين أهلاً، وأحسنهما حالاً، وأولاهما استيطاناً لوجود مواده فيه، واقتناء أصولهما منه. ومن شروطه، أن يكون في وسط سواده، وبين جميع أطرافه؛ حتى تعتدل مواده منها، وتتساوى طرقه إليها؛ وهو موفور العمارة ما كان سواده عامراً. فإن نال أهله فيه حيف، فرقهم الحيف في سواده؛ فأصابوا عيشاً، ودافعوا من زمان الحيف وقتاً. وإن جار السواد على أهله كان لهم في المصر أمن وملاذ، ويكون كل واحد منها للآخر معاذاً.

وأما مصر الفرصة والتجارة فهو من كمال الإقليم، وزينة الملك؛ لأنه مقصود بتحف البلاد، وطرف الأقاليم؛ فلا يعوز فيه مطلوب، ولا ينقطع عنه مجلوب. والمعتبر فيه ثلاثة شروط؛ **أحدها**: أن يتوسط أمصار الريف، ويقرب من بلاد المتاجر، فلا يبعد على طالبه، ولا يسبق على قاصده. **والثاني**: أن يكون على جادة تسهل مسالكها، ويمكن نقل الأثقال فيها؛ إما في نهر، أو على ظهر. فإن توعرت مسالكه، وأجدبت مفاوزه عدل الناس عنه إلا من ضرورة. **والثالث**: أن يكون مأمون السبل لأهل الطرقات، خفيف الكلف قليل الأثقال؛ فإنه ليس يأتيه إلا جالب مجتاز يطلب من البلاد أجداها؛ فإن توعر هجر. وهذا أكثر البلدين طالباً، وأنشرهما في

الأقاليم ذكراً. وهو معد لمطالب الملوك، لا لموادهم، فإن استمدوه وتحيفوه بالمكوس والأعشار نفروا عنه. وإن وجدوا سواه صار لأهل الضرورات دون الاختيار، ولا دوام لأوطان الأضرار. ولا يبعد أن يندرس، فيلحق المضطر بالمختار، وإن لم يستدركه سلطانه بتخفيف وإنصاف، لأن أمواله أموال تجارة متنقلة، لا يشق عليهم تحويلها؛ فهم يستوطنون من البلاد أعدلها، ويقصدون من المتاجر والمعاملات أسهلها، فإن نبا بهم وطن؛ فكل البلاد لهم وطن، قال الشاعر:

واترك محل السوء لا تحلل به   وإذا نبا بك منزل فتحول

[الماوردي، **تسهيل**، ص 209-213]

7 ■ كتابة تاريخ المدينة

ولما كان الفن التاريخي مأرب البشر، ووسيلة إلى ضم النشر، يعرفون به أنسابهم في ذلك شرعاً وطبعاً ما فيه، ويكتسبون به عقل التجربة في حال السكون والرفيه، ويستدلون ببعض ما يبدي به الدهر وما يخفيه، ويرى العاقل من تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره بالإيمان ويشفيه، ويمر على مصارع الجبابرة فيحسبه بذلك واعظاً ويكفيه، وكتاب الله يتخلله من القصص ما يتمم هذا الشاهد لهذا الفن ويوفيه. وقال الله تعالى: ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾. وقال عز من قائل: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾.

فوضح سبيل مبين. وظهر أن القول بفضله يقتضيه عقل ودين، وأن بعض المصنفين، ممن ترك نومه لمن دونه، وأنزف ماء شبابه مودعاً إياه بطن كتابه، يقصده الناس ويردونه، اختلفت في مثل هذا الباب أغراضهم. فمنهم من اعتنى بإثبات حوادث الزمان، ومنهم من اعتنى برجاله بعد اختيار الأعيان، عجزاً عن الإحاطة بهذا الشأن، عموماً في أكثر الأقطار، وخصوصاً في بعض البلدان. فاستهدف إلى التعميم فرسان الميدان، وتوسعوا بحسب مادة الاطلاع وجهد الإمكان؛ وجنح إلى التخصيص الأولوية بحسب ما يخصه من المكان، ويلزمه من حقوق السكان، مغرماً برعاية عهود وطنه، وحسن العهد من الإيمان، بادئاً بمن يعوله كما جاء في الطرق الحسان. فتذكرت جملة من موضوعات من أفرد لوطنه تاريخاً هز إليها ـ علم الله ـ وفاء وكرم،

ودار عليها، بقول الله من رحمته الواسعة، حرم؛ **كتاريخ مدينة بخارى** لأبـي عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الفخار. **وتاريخ أصبهان** لأبـي نُعَيم أحمد بن عبـد الله الحافظ صاحب **الحلية**. **وتاريخ أصبهان** أيضاً لأبـي زكريا يحيـى بن عبد الوهاب بن قندة الحافظ. **وتاريخ نيسابور** للحاكم أبـي عبد الله بن اليسع، وذيله لعبد الغافر بن إسماعيل. **وتاريخ همذان** لأبـي شجاع شيـرويه بن شهـردار بن شيرويـه محمد بن فناخسرو الديلمي. **وتاريخ طبقات أهل شيراز** لأبـي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن القصار. **وتاريخ هراة** أظنه لأبـي عبد الله الحسن بن محمد الكتبـي. **وأخبار هراة** أيضاً **ومن نزلها من التابعين وغيـرهم من المحدثين** لأبـي إسحق أحمـد بن ياسين الحداد. **وتاريخ سمرقند** لعبد الرحمن بن محمد الأردسي. **وتاريخ نسف** لجعفر بن محمد المعبر المستعفري. **وتاريخ جرجان** لأبـي القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي. **وتاريخ الـرقة** لأبـي علي محمـد بن سعيد بن عبـد الرحمن القشيـري. **وتـاريخ بغـداد** للخطيب أبـي بكـر بن ثـابت، وذيله لأبـي سعيـد عبـد الكـريم بن محمد بن منصور السمعاني. **وأخبار بغداد** لأحمد بن أبـي طـاهر. **وتـاريخ واسط** لأبـي الحسين علي بن الطيب الخلافي. **وتاريخ من نزل حمص من الصحابة ومن دخلهـا، ومن ارتحـل عنهـا، ومن أعقب، ولم يعقب، وحـدث ولم يحـدث**، لأبـي القاسم عبد الصمد بن سعيد القاضي. **وتاريـخ دمشق** لأبـي القاسـم علي بن الحسن بن عساكر. **وتاريخ مكة** للأزرقي. **وتاريخ المدينة** لابن النجار. **وتاريخ مصر** لعبد الرحمن بن أحمد بن نواس. **وتاريخ الإسكندرية** لـوجيه الـدين أبـي المظفـر منصـور بن سليمان بن منصـور بن سليم الشافعي. **وتـاريخ طبقـات فقهـاء تـونس** لأبـي محمد عبد الله بن إبراهيم بن أبـي العباس بن خلف التميمي. **وعنوان الدراية في ذكر من كان في المائة السابعة بجباية**، لأبـي العباس بن الغبريني. **وتاريخ تلمسان** لابن الأصفر. **وتاريخها** أيضاً لابن هدية. **وتاريخ فاس** لابن عبد الكريم. **وتاريخها** أيضاً لابن أبـي زرع. **وتاريخ فاس** أيضاً للقونجي. **وتاريخ سبتة المسمى بالفنون الستة**، لأبـي الفضل عياض بن موسى بن عياض تركه في مسودته. **وتاريخ بلنسية** لابن علقمة. **وتاريخ البيرة** لأبـي القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي المـلاحي. **وتاريخ شقورة** لابن إدريس. **وتاريخ مالقة** لأبـي عبد الله بن عسكر، تركه غير متمم، فتممه بعد وفاته ابن أخيه أبو بكر بن خمسين. **والإعلام بمحاسن الأعلام من أهـل مالقة**، لأبـي العباس أصبغ بن العباس. **والاحتفال في أعـلام الرجـال**، لأبـي بكر

الحسن بن محمد بن مفرج القيسي. **وتاريخ قرطبة، منتخب كتاب الاحتفال. وتاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بطليطلة**، لأبي جعفر بن مظاهر. **ومنتخبه** لأبي القاسم بن بشكوال. **وتاريخ قلعة يحْصِب المسمى بالطالع السعيد**، لأبي الحسن ابن سعيد. **وتاريخ بقيرة**، لأبي عبد الله بن المؤذن. **والدرة المكنونة في أخبار أشبونة**، لأبي بكر بن محمد بن إدريس الفرابي العالوسي. **ومزيّة المرية**، لأبي جعفر أحمد بن خاتمة من أصحابنا. **وتاريخ المرية وباجة**، لشيخنا نسيج وحده أبي البركات بن الحاج، متع الله بإفادته، وهو في مبيضته، لم يرمها بعد.

فداخلتني عصبية لا تقدح في دين ولا منصب، وحمية لا يذم في مثلها متعصب...

[ابن الخطيب، **إحاطة**، ج 1، ص 80-83]

الفصل الثاني

رواية التأسيس

I ـ الأسطورة

8 ــــــــــــــــــــــــــ ■ **فاس**

واختلف الناس في السبب الذي سميت من أجله: فقيل أن إدريس رضي الله عنه لما شرع في بنائها كان يعمل فيها بيديه مع الصناع والفعلة والبنائين تواضعاً منه لله تعالى ورجاء الأجر والثواب، فصنع له بعض خدمته فأساً من ذهب وفضة، فكان إدريس رضي الله عنه يمسكه بيده ويبتدىء به الحفر ويختط به الأساسات للفعلة، فكثر عند ذالك ذكر الفأس على السنتهم في طول مدة البناء، فكان الفعلة يقولون هاتوا الفأس، خذوا الفأس احفروا بالفأس، فسميت مدينة فاس لأجل ذالك، قاله صاحب **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار** ويقال أنه لما شرع في حفر أساسها في جهة القبلة وجد في الحفير فأس كبير [كذا] طوله أربعة أشبار، وسعته شبر، وزنته ستون رطلاً، فسميت المدينة به واضيفت إليه، وقيل أن إدريس رضي الله عنه لما شرع في بنائها قال له خاصته أيها الأمير كيف نسميها؟ قال: سموها باسم أول رجل يطلع عليكم، فمر بهم رجل فسألوه عن اسمه وكان ألثغ، وقال اسمي فارس فأسقط الراء من لفظه لأجل اللثغة، فقال الإمام إدريس سموها كما نطق بها فقالوا فاس، وقيل سميت فاس لأن قوماً من الفرس نزلوها مع إدريس رضي الله عنه حين أسسها، فسقط عليهم جرف فماتوا من حينهم ولم ينج منهم إلا قليل، فسميت مدينة الفرس، ثم خفف الناس الاسم فقالوا مدينة فارس، ثم أسقطوا الراء من اللفظ اختصاراً فقالوا مدينة فاس، وقيل لما تمت بالبناء قيل لإدريس رضي الله عنه كيف نسميها؟ قال نسميها باسم المدينة التي كانت قبلها في موضعها الذي أخبرني الراهب أنه كان هنا مدينة أزلية من بنيان الأوائل فخربت قبل الإسلام بألف وسبعمئة سنة وكان اسمها مدينة ساف، ولكن اقلبوا اسمها وسموها، فقلبوه فأتا منه فاس فسميت مدينة فاس، وهاذا أصح ما يكون في تسميتها والله أعلم.

[ابن أبي زرع، **قرطاس**، ص 45]

9 ■ تطوان

تطاوين مدينة صغيرة بناها الأفارقة القدامى على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً من المضيق، وستة أميال من البحر. وقد فتحها المسلمون عندما أخذوا سبتة من يد القوط. ويقال إن هؤلاء لما ملكوا تطاوين سلموا حكمها إلى أميرة عوراء كانت تأتي كل أسبوع إلى المدينة لاستلام موردها، ولما لم تكن لها غير عين واحدة فقد سموا مدينتهم تطاوين، ومعناها عين واحدة باللغة الإفريقية.

[الوزان، **وصف**، ج 1، ص 318]

10 ■ القصر الكبير

مدينة كبيرة أسست في عهد المنصور ملك مراكش وخليفتها بأمره. وتروى الواقعة التالية كحدث تاريخي صحيح. فوجىء هذا الملك ذات يوم وهو يصطاد في البادية بمطر شديد وريح عاتية وظلام حالك، حتى افتقد حرسه وتوقف في مكان لا يدري أين هو واضطر إلى أن يقضي الليل بالعراء. وبينما هو كذلك لا يتحرك خوفاً من أن يغوص في المستنقعات، رأا نوراً ووجد أمامه لحسن حظه صياداً تعود أن يذهب لاصطياد سمك الانقليس (النون) من هذه المستنقعات، فقال له المنصور: هل تستطيع أن تدلني على مخيم الملك؟. فأجابه الصياد بأن المخيم يبعد بعشرة أميال من هناك. ولما طلب منه الملك أن يصحبه إليه قال له: «لو كنت أنت المنصور نفسه لما قدتك إليه، لأنني أخشى أن تغرق في المستنقع». فقال الملك: «وماذا يهمك من حياة المنصور؟» فأجاب الصياد: «أوه! يبدو لي أن الملك جدير بالمحبة» فقال الملك: «لقد وصلك منه إذن إحسان كبير» فرد الصياد: «أي إحسان أكبر يمكن أن يناله إنسان من ملك أكثر من العدل والرفق الكامل والعطف الذي يبرهن عنه في حكمه للرعية؟! وبفضل هذا أستطيع أنا الصياد المسكين أن أتمتع بفقري في سلام مع زوجتي وأسرتي الصغيرة. أخرج من كوخي في منتصف الليل، وأعود إليه متى شئت، فلا أجد أحداً يسيء إلي أقل إساءة في هذا الوادي وهذه الأمكنة الخالية، وأنت أيها النبيل، أرجوك أن تقضي هذه الليلة في منزلي، وغداً في الصباح سأكون في خدمتك لأصحبك إلى حيث تريد».

قبل الملك الدعوة وذهب مع الرجل الطيب إلى كوخه. ولما وصلا، رفع

الصياد السرج عن فرس الملك وقدم له علفاً كثيراً، ثم طبخ سمك أنقليس (نونا) وقدمه للملك الذي كان في هذه الأثناء قد جفف ثيابه بقدر الإمكان قرب نار طيبة متوهجة. ولما كان الملك لا يستطيع أكل السمك فإنه طلب من الصياد إن كان عنده قليل من لحم، فأجابه الرجل الفقير: «إن ثروتي يا سيدي تتكون من عنزة وجديها الذي ما يزال رضيعاً، إلا أنني أعتقد أن من حسن حظ الحيوان أن يقدم لحمه تشريفاً لمثلك. وإذا لم يخدعني ظاهرك، فيبدو أنك أمير كبير». ولم يلبث أن ذبح الجدي وطلب من زوجته أن تعده شواء، فتعشى الملك وأخذ قسطاً من الراحة إلى الصباح، ثم انطلق من الكوخ مبكراً مع مضيفه اللطيف كدليل. وما كادا يخرجان من المستنقع حتى لقيا جماعة من الفرسان والصيادين مذعورين وهم يبحثون عن الملك ويطلقون صرخات النداء. وقد فرحوا جميعاً برؤية الملك، والتفت المنصور إلى الصياد وعرفه بنفسه وقال له بأنه سيتذكر لطفه دائماً. وفي أثناء توقف الملك بتلك الناحية أمر ببناء قصور مهمة جميلة وعدد من المنازل، ثم أهداها عند انصرافه إلى الصياد مكافأة له، فالتمس منه الصياد أن يسور هذه القصور والدور، الشيء الذي سيدل أكثر على حلمه وكرمه، فكان ذلك، وأصبح الصياد أميراً على المدينة الجديدة الصغيرة التي أخذت تكبر يوماً عن يوم حتى أصبحت في وقت قصير تسع أربعمائة كانون بسبب خصوبة البلاد. وقد تعود الملك أن يقضي الصيف كله في هذه الناحية، فكان ذلك أيضاً سبباً في ازدهار المدينة.

[الوزان، وصف، ج 1، ص 303-304]

II ـ تعدد الروايات

● فـاس

11 ■ رواية بن أبي زرع

فلما رأا إدريس رضي الله عنه أن الأمر قد استقام له وعظم ملكه وكثر جيشه وضاقت بهم المدينة، عزم على الانتقال عنها وأراد أن يبني مدينة يسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته فركب في خاصة من قومه ورؤساء دولته وخرج يتخير البقاع، وذالك في

سنة تسعين ومئة، فوصل إلى جبل رالغ فأعجبه ارتفاعه وطيب تربته واعتدال هوائه وكثرة محارثه فاختط مدينة بسنده مما يلي الجوف وشرع في بنائها، فبنا جزءاً من سورها، فأتا سيل من أعلا الجبل في بعض الليالي فهدم جميع ما كان بناه من السور المذكور، وحمل ما حوله من خيام العرب، وأفسد كثيراً من الزرع، فلما رأا ذالك إدريس رضي الله عنه رفع يده من البناء وقال: هذا موضع لا يصلح للمدينة، فالسيول تركبه من رأس الحبل، قاله ابن غالب في تاريخه

وقيل إن إدريس بن إدريس رضي الله عنهما لما وصل إلى جبل زالغ صعد في لبته فأعجبه ارتفاعه وإشرافه على جميع الجهات، فجمع قواده ووجوه دولته وحشمه فأمرهم ببباء الديار في سند الجبل فبنوا الديار، وحفروا بالجبل الآبار، وغرسوا الزيتون والكرم والأشجار وشرع هو في بناء المسجد والسور، فبنا من سورها جزءاً يزيد على الثلث، فلما كان في بعض الليالي نزل مطر عظيم وابل، فهبط السيل من أعلا الجبل دفعة واحدة، فهدم جميع ما كان مبنياً وأفسد جميع ما كان غرس، وحمل ذالك كله حتى رما به في نهر سبو وهلك فيه خلق كثير، فكان ذالك سبب رفع اليد من بنائها.

فأقام الإمام إدريس رضي الله عنه إلى أن دخل شهر المحرم مفتتح سنة إحدى وتسعين ومئة، فخرج يتصيد ويرتاد لنفسه موضعاً يبني فيه ما قد عزم عليه، فوصل إلى وادي سبو حيث هي حمة خولان فأعجبه الموضع لقربه من الماء ولأجل الحمة التي هنالك، فعزم على أن يبني به المدينة، وشرع في حفر الأساس وعمل الجير وقطع الخشب وابتدأ بالبناء، ثم نظر إلى وادي سبو وكثرة ما يأتي به من المدود العظيمة في زمن الشتاء، فخاف على الناس الهلكة فبدا له في بنائها ورفع يده عنها ورجع إلى مدينة وليلى، فبعث وزيره عمير بن مصعب الأزدي يرتاد له موضعاً يبني فيه المدينة التي أراد، فسار عمير في جماعة من قومه يرتاد له ما طلب، فاخترق تلك النواحي وجال في تلك الجهات يختبر الأرضين والمياه حتى وصل إلى فحص سايس، فوجد فسحة الأرض واعتدالها وكثرة المياه فأعجبه ما رآه من ذالك، فنزل هنالك على عين غزيرة من ماء تطرد في مروج مخضرة، فتوضأ وصلى بهم صلاة الظهر حولها، ثم دعا الله تعالى أن يهون عليه مطلبه، وأن يدله على موضع يرتضيه لعبادته، فركب وأمر قومه أن ينتظروه عند تلك العين حتى يعود إليهم، فنسبت العين إليه وسميت به عين عمير إلى الآن، وعمير هذا هو جد بني الملجوم من بيوتات فاس، فسار عمير في فحص سايس يطلب ما خرج إليه حتى وصل إلى العيون التي ينبعث منها نهر مدينة فاس، فرأا عيوناً كثيرة تزيد على ستين عنصراً. ومياهها تطرد في فسيح الأرض، ورأا حول العيون شجراً من الطرفاء والطخش والعرعر والكلخ وغيره، فشرب من ذالك الماء فاستطابه، فقال هاذا ماء عذب وهواء معتدل، وهو أقل ضرراً وأكثر نفعاً، وحوله من المزارع أكثر مما حول نهر سبو، ثم سار مع مسيل الماء حتى وصل إلى موضع مدينة فاس، فنظر إلى ما بين الجبلين غيضة ملتفة الأشجار، مطردة العيون والأنهار، وفي بعض منها خيام من شعر يسكنها قبائل من زناتة يعرفون بزواغة وبني يرغش، فرجع عمير إلى إدريس وأعلمه بما وقع عليه من الأرض وما استحسنه من كثرة مياهها وطيب تربتها ورطوبة هوائها وصحتها

واعتدال الهواء فأعجبه ما رأاه من ذالك، وسأل عن مالك الأرض فقيل له قوم من زواغة يعرفون ببني الخير فقال إدريس رضي الله عنه هذا فال حسن، فبعث إليهم واشترا منهم مواضع المدينة بستة أالاف درهم ودفع لهم التمن وأشهد عليهم بذالك وشرع في بناء المدينة.

وقيل كان يسكن مدينة فاس قبيلتان من زناتة وزواغة وبني يرغثن، وكانوا أهل أهواء مختلفة، منهم على الإسلام، ومنهم على النصرانية ومنهم على اليهودية، ومنهم على المجوسية، ومنهم بنو يرغثن وكانوا يسكنون بخيامهم بحومة عدوة الأندلس الآن، وكان بيت نارهم بالشيبوبة وكانت زواغة بحومة عدوة القرويين، فكان القتال بين القبيلتين لا يزال على مر الأيام، فلما أتا إدريس رضي الله عنه مع عمير لينظر إلى الموضع الذي ارتاده له وجد زواغة وبني يرغثن يقتتلون فيما بينهم على حدود الأرض، فبعث إدريس إليهم، فحضر الفريقان بين يديه، فأصلح بينهما، ثم اشترا منهم الغيضة التي بنا فيها المدينة، وكانت عظيمة لأترام لكثرة المياه والأشجار والسباع والخنازير، فرضوا جميعاً ببيعها وإخراجها من يد الفريقين، ثم شرع في البناء.

وقيل أنه اشترا موضع عدوة الأندلس من بني يرغثن بألفي درهم وخمسمئة درهم فدفع لهم المال، وكتب العقد بشرائها منهم كاتبه الفقيه أبو الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي الأنصاري، وذالك في سنة إحدى وتسعين ومئة، فنزل به إدريس رضي الله عنه وشرع في بناء السور، وضرب أبنيته وقبابه بالموضع المعروف اليوم بجرواوة ودور عليها جدرا من الخشب والقصب فسمي الموضع جرواوة إلى اليوم، ثم اشترا موضع عدوة القرويين من بني الخير الزواغيين بثلاثة آلاف درهم وخمسمئة درهم وشرع في بنائها.

[ابن أبي زرع، **قرطاس**، ص 29-32]

12 ■ رواية العمري

قلت: وثم فائدة لا بأس بذكرها والتنبيه عليها ذكرها ابن سعيد في المغرب وهي أن فاساً القديمة ـ هي أيضاً ـ مدينتان، أقدمهما المعروفة بمدينة الأندلسيين، بنيت في زمان إدريس بن عبد الله الحسني أحد خلفاء المغرب، ثم المعروفة بمدينة القرويين بنيت بعدها. قلت: وهاتان المدينتان هما المعبَّر عنهما الآن بفاس العتيقة، فجملة فاس الآن ما يذكر مدينة الأندلسيين ومدينة القرويين ومدينة البيضاء ومدينة حمص وربض النصارى والقصبة. والذي يطلق على الجميع فاس القديمة: ولجميع الأندلسيين والقرويين، وفاس الجديدة: لجميع البقية وهي البيضاء وحمص والربض ويطلق على الجميع اسم فاس.

وقد ذكر ابن سعيد أنها سميت فاس لأنهم لما شرعوا في بناء أساسها وجدوا فأساً فسموها به وقد ذكر ابن سعيد فاسا فقال: هي متوسطة بين مدن الغرب يعني الداخلة من مراكش وسبتة وسلجماسة وتلمسان عشرة أيام. قالت: ولتوسطها صلحت أن تكون قاعدة الملك ليقرب الملك من جميع نواحيه.

[العمري، مسالك، ص 118]

● مراكش

13 ■ رواية الادريسي(*)

وبشمال هذه المدينة [أغمات] وعلى اثني عشر ميلاً منها مدينة بناها يوسف بن تاشفين في صدر سنة سبعين وأربع مائة بعد أن اشترى أرضها من أهل اغمات بجملة أموال، واختطها له ولبني عمه. وهي في وطاء من الأرض ليس حولها شيء من الجبال، إلا جبل صغير يسمى إيجليز، ومنه قطع الحجر الذي بني منه قصر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وهو المعروف بدار الحجر. وليس في موضع مدينة مراكش حجر البتة إلا ما كان من هذا الجبل، وإنما بناؤها بالطين والطوب والطوابي المقامة من التراب. وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة، استخرج ذلك عبيد الله بن يونس المهندس. وسبب ذلك أن ماءهم ليس ببعيد الغور، موجود إذا احتفر قريباً من وجه الأرض. وذلك أن هذا الرجل المذكور، وهو عبيد الله بن يونس، جاء إلى مراكش في صدر بنائها وليس بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين المقدم ذكره، فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان. فاحتفر فيه بئراً مربعة كبيرة التربيع، ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض ومر يحفر بتدريج، من أرفع إلى أخفض، متدرجاً إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان. وهو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه فهو جار مع الأيام لا يفتر. وإذا نظر الناظر إلى مسطح الأرض لم ير بها كبير ارتفاع يوجب

(*) ورد هذا النص بعد حديث الإدريسي عن مدينة أغمات.

خروج الماء من قعرها إلى وجهها، وإنما يميز ذلك عالم بالسبب الذي به استخرج ذلك الماء، والسبب هو الوزن للأرض. فاستحسن ذلك أمير المسلمين من فعل عبيد الله بن يونس المهندس، وأعطاه مالاً وأثواباً، وأكرم مثواه مدة بقائه عنده. ثم إن الناس نظروا إلى ذلك، ولم يزالوا يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين، حتى كثرت البساتين والجنات، واتصلت بذلك عمارات مراكش، وحسن قطرها ومنظرها. ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى، لأنها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم، وسلك جميعهم. وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة، وأزقتها واسعة، ورحابها فسيحة، ومبانيها سامية، وأسواقها مختلفة، وسلعها نافقة.

[الإدريسي، نزهة، ج 1، ص 233-234]

14 ـــــــــــــــــــ ■ رواية المراكشي(*)

وبين مدينة سلا هذه ومدينة مراكش كرسيّ المملكة، تسع مراحل، فمراكش آخر المدن بالمغرب، وكان الذي اختطها ملك لمتونة [تاشفين بن علي، ثم زاد فيها بعده ابنه] يوسف بن تاشفين، ثم زاد فيها بعدهما علي بن يوسف بن تاشفين، ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت في نهاية الكبر، فهي اليوم طولاً وعرضاً قدر أربع فراسخ ـ هذا إذا ضُمت إليها قصور بني عبد المؤمن ـ وأجرى المصامدة فيها مياهاً كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك فصارت بذلك في نهاية الحسن وغاية الكمال كما قال الأول:

ليس فيها ما يقال له   كملت لو أنه كملا

[المراكشي، معجب، ص 507]

(*) يذكر عبد الواحد المراكشي الأمير تاشفين بن علي. وربما هو سهو من المؤلف أو خطأ في النسخة المخطوطة التي اعتمدها المحققان. والمعروف أن يوسف بن تاشفين حل محل ابن عمه أبي بكر بن عمر.

15 ■ رواية ابن عذاري

وفي هذه السنة [461/1068-1069] ضاق المجمع بمدينة أغمات وريكة عن الخلق فيها فشكا أشياخ وريكة وهيلانة بذلك إلى الأمير أبـي بكر بن عمر مرة بعد أخرى إلى أن قال لهم: «عينوا لنا موضعاً أبني فيه مدينة - إن شاء الله تعالى» - وكان سكناه مع إخوانه في الأخبية. . . حتى ابتنى بزوجه زينب النفزاوية في هذا العام فزاد الخلق بأغمات من أجل. . . هيلانة وهزميرة على أن يعينوا موضعاً حيث يكون بناء المدينة، فوقع التنازع بين المذكورين في ذلك، وطلب كل واحد أن يكون بناء المدينة في بلادهم لينسب بناؤها إليهم وذلك لأجل ما تقدم بينهما من الفتنة ومداولة الإمـارة إلى أن اجتمعت أشياخ قبايل المصامدة وغيرهم فوقع تدبيرهم أن يكون موضع تلك المدينة بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك أميرهم أبا بكر بن عمر وقالوا له: «قد نظرنا لك موضع صحراء لا أنيس به إلا الغزلان والنعام ولا تنبت إلا السدر والحنظل». ثم كان أراد بعضهم أن تكون المدينة على وادي تانسيفت فامتنع لهم من ذلك وقال: «نحن من أهل الصحراء ومواشينا معنا لا يصلح لنا السكنى على الوادي» فنظروا له ذلك الموضع لكي يكون وادي نفيس جنانها، ودكالة فدانها، وزمام جبل درن بيد أميرها طول زمانها، فركب الأمير أبو بكر في عسكره مع أشياخ القبايل فمشوا معه إلى فحص مراكش وهو خلاء لا أنيس به فقالوا له: «ابن هنا مدينة تكون متوسطة بين هيلانـة وهزميرة».

[ابن عذاري، بيان، ج 4، ص 19]

16 ■ رواية ابن أبـي زرع

ودخلت سنة أربع وخمسين وأربعمئة [1158-1159]، فيها تقوا أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب وكبر صيته وفيها اشترا مـوضـع تـأسيس مدينـة مراكش ممن كـان يملكه من المصامدة، فسكن الموضع بخيام الشعر، وبنا فيه مسجداً للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، ولم يبن على ذالك سوراً، وكان رحمه الله لما شرع في بناء المسجد يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعاً منه وتورعاً غفر الله له ونفعه بقصده، والذي بناه يوسف من ذالك هو الموضع المعروف الآن بسور الحجر من مدينة مراكش جوفاً من جامع الكـتبيين منها، ولم يكن بها ماء، فحفر الناس بها آباراً فخرج لهم الماء على قرب، فاستوطنها الناس، ولم تزل كذالك لا سور لها، فلما ولي بعده ولده علي بنا سورها في ثمانية

اشهر، وذالك في سنة ست وعشرين وخمسمئة، ثم احتفل في بنـائها ومصـانعها أميـر المسلمين يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الكومي الموحدي أيام ملكه بالمغرب، ولم تزله مدينة مراكش دار مملكة المرابطين ثم الموحدين من بعدهم من يـوم اسست إلى انقراض الدولة الموحدية، فانتقل الملك منها إلى مدينة فاس.

[ابن أبـي زرع، **قرطاس**، ص 138-139]

● ربـاط الفتـح

17 ——— ■ رواية ابن حوقل

وبسله ربـاط يرابط فيـه المسلمون، وعليـه المدينـة الأزلية المعـروفـة بسله القديمة، وقد خربت والناس يسكنون ويرابطون برباطاتٍ تحف بها. وربما اجتمع في هذا المكان من المـرابطين مـائة ألف إنسـان يزيـدون في وقت وينقصون لـوقت؛ ورباطهم على برغواطة، قبيل من قبائل البربر على البحر المحيط متصلين بهذه الجهة التي سقت عمارة بلد الإسلام إليها يغزون ويسبون. . .

[ابن حوقل، صورة، ص 81-82]

18 ——— ■ رواية البيدق(*)

وبعد الاعتراف وتمهيد البلاد جدد الخليفة [عبد المومن] الخروج إلى سلا في ذالك العام بعد الاعتراف، وأمر بساقية من غبولة أن تحفر وتهبط إلى سلا والخليفة ساكن فيها، وأمر برباط الفتح أن يحفر أساسه وبنا فيه قصراً ومكث في خدمة الساقية والأساس وبناء القصر خمسة أشهر.

وأمر الخليفة بالعساكر أن تجيء إلى سلا وبايعوه فيها، وأقلع منها إلى بجاية والساقية لم تتم وبناء القصر. وترك على اشتغالهما عبد الحق بن إبراهيم بن جامع، فمشينا، وجاز الخليفة من المعمورة هابطاً إلى الهبط. . .

[البيدق، أخبار، ص 73]

(*) عبد المومن الموحدي يؤسس المدينة سنة 548/ 1153-1154.

19 ■ رواية المراكشي(*)

ثم شرع في بنيان المدينة العظمى التي على ساحل البحر والنهر من العُدْوة التي تلي مراكش، وكان أبو يعقوب ـ رحمه الله ـ هو الذي اختطها ورسم حدودها وابتدأ في بنيانها، فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها، فشرع أبو يوسف ـ كما ذكرنا ـ في بنيانها إلى أن أتم سورها. وبنى فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفناء جداً، لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه، وعمل له مأذنة في نهاية العلو، على هيئة منار الإسكندرية، يصعد فيه بغير درج، تصعد الدواب بالطين والآجُرّ والجص وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم، لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف، ولم يعمل فيه محمد ولا يوسف شيئاً، وأما المدينة فتمت في حياة أبي يوسف وكملت أسوارها وأبوابها وعمر كثير منها، وهي مدينة كبيرة جداً، تجيء في طولها نحواً من فرسخ، وهي قليلة العرض.

ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر في أمر نفقاتها وما يصلحها، فلم يزل العمل فيها وفي مسجدها المذكور طول مدة ولايته إلى سنة 594، وسار هو حتى نزل مراكش.

[المراكشي، معجب، ص 384-385]

(*) يعقوب المنصور يجعل من النواة الأولى مدينة كبيرة.

الفصل الثالث

التمدين بين الإحداث والتطور التلقائي



20 ■ نكور

والذي أسسها وبناها سعيد بن إدريس بن صالح بن منصور الحميري. وصالح هو المعروف بالعبد الصالح، وهو الذي افتتحها زمن الوليد بن عبد الملك، ودخل أرض المغرب في الافتتاح الأول فنزل مرسى تمسامان على البحر بموضع يقال له بدكون بوادي البقر. وبين مرسى تمسامان ومدينة نكور عشرون ميلاً، وهو مرسى صيفي لا يكنّ. ويقابله من بر الأندلس مدينة طونيانة. وعلى يديه أسلم بربرها، وهم صنهاجة وغمارة، ثم ارتد أكثرهما لما ثقلت عليهم شرايع الإسلام، وقدموا على أنفسهم رجلاً يسمى داود ويعرف بالرُندى، وكان من نفزة، واخرجوا صالحاً من البلد. ثم تلافَاهُم الله بهداه وتابوا من شركهم، وقتلوا الرندى واستردوا صالحاً. فبقي هنالك إلى أن مات بتمسامان ودفن بقرية يقال لها أقطى على شاطىء البحر، وقبره بها يعرف إلى اليوم. وكان له من الولد المعتصم وإدريس أنهما صنهاجية، وعبد الصمد. فولوا المعتصم فمكث بينهم يسيراً ومات. فولي سعيد بن إدريس وهو الذي بنى مدينة نكور على ما تقدم. وقد كان صالح بن منصور أنزل نفراً من البربر موضعاً يحاذي مدينة نكور في الضفة الثانية من النهر. وكانوا يقيمون هناك سوقاً فنقلهم سعيد إلى المدينة التي أسس.

[البكري، **مسالك**، ص 91-92]

21 ■ سجلماسة

ومدينة سجلماسة بنيت سنة أربعين وماية [757-758]، وبعمارتها خلت مدينة

ترغة، وبينهما يومان، وبعمارتها خلت زيز أيضاً. ومدينة سجلماسة مدينـة سهلية، أرضها سبخة حولها أرباض كثيرة، وفيها دور رفيعة ومبان سرية. ولها بساتين كثيرة، وسورها أسفله مبني بالحجارة وأعلاه بالطوب، بناه اليسع أبو منصور بن أبـي القاسم من ماله لم يشركه في الإنفاق عليه أحد. أنفق فيه ألف مدى طعام. وله اثنا عشر باباً، الثمانية منها حديد. وكان بنا اليسع له سنة تسع وتسعين وماية وارتحل إليها سنة مايتين، وقسمها على القبايل على ما هي عليه اليوم (. . .).

وبين سجلماسة ووادي درعة مسيرة خمسة أيام. وملك بنو مدرار سجلماسة ماية وستين سنة، وكان فيه أبو القاسم سمجوا بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور. وجدّ مدرار لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه. وكان صاحب ماشية، وكثيراً ما ينتجع موضع سجلماسة، فاجتمع إليه قوم من الصفرية، فلما بلغوا أربعين رجلاً قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود وولوه أمرهـم. فشرعوا في بنيان سجلماسة، وذلك سنة أربع وماية. وذكر آخرون أن مدراراً كان حداداً من ربضية الأندلس، فخرج عند وقعة الربض، فنزل منزلاً بقرب سجلماسة، وموضع سجلماسة إذ ذاك براح، يجتمع فيه البربر وقتاً ما من السنة يتسوقون لقرب. فكان مدرار يحضر سوقهم بما يعده من آلات الحديد، ثم ابتنى بها خيمة وسكنها، وسكن البربر حوله، فكان ذلك أصل عمارتها، ثم تمدنت، والأول أصح في عمارتها. وأما مدرار، فلا شك فيه أنه كان حداداً لأن ولده القايمين بأمر سجلماسة قد هجوا بذلك.

[البكري، مسالك، ص 149]



22 ـــــــ ■ أصيلة

ومدينة أصيلة أول مدن العدوة من جانب الغرب، وهي في سهلة من الأرض، حولها رواب لطاف، والبحر بغربيها وجوفيها، وكان عليها سور له خمسة أبواب، وجامعها خمسة بلاطات، وإذا ارتج البحر بلغ الموج إلى حايط الجامع، وسوقها حافلة يوم الجمعة. وماء آبار المدينة عذبة، وبخارجها آبار عذبة: بير عدل، وبير

السانية، وآبار كثيرة. ومقبرتها في شرقيها. ومرساها مامون، والمدخل إليه من الشرق، ويستدير بالمرسى، من ناحية الجوف، جسر من حجارة مخلوقة تكب عن السبعين المرقاة فيها هيجان البحر. ومدينة أصيلة محدثة، وكان سبب بنيانها أن المجوس خرجوا في مرساها مرتين: فأما الأولى فأتوا قاصدين وزعموا أن لهم بها أموالاً وكنوزاً. فاجتمع البربر لقتالهم فقالوا: لم نأت بالحرب، وإنما لنا كنوزاً في هذا الموضع، فكونوا ناحية حتى نستخرجها ونشاطركم فيها. فرضي البربر بذلك واعتزلوا، وحفر المجوس موضعاً فاستخرجوا دخناً كثيراً، عفنا بنظر البربر إلى صفرته، فظنوه ذهباً فبدروا إليه، وهرب المجوس إلى مراكبم، وأصاب البربر الدخن، فندموا ورغبوا المجوس في الخروج واستخراج المال فأبوا وقالوا: قد نقضتم عهدكم فلا نثق بعذركم، وساروا إلى الأندلس، فحينئذٍ خرجوا باشبيلية، وذلك سنة تسع وعشرين ومايتين في أيام الامام عبد الرحمن بن الحكم. وأما خروجهم الثاني هناك فإن الريح قذفتهم في ذلك المرسى من الأندلس وعطفت لهم على باب المرسى، من ناحية الغرب، مراكب كثيرة، ويعرف ذلك الموضع بباب المجوس إلى اليوم. فاتخذ الناس موضع أصيلة رباطاً، فانتابوه من جميع الأمصار. وكانت تقوم فيه سوق جامعة ثلاث مرات في السنة، وهو وقت اجتماعهم وذلك في شهر رمضان، وفي عشر ذي الحجة، وفي عاشوراء، وكان الموضع ملكاً للواتة، فابتنى فيه قوم من كتامة واتخذوه جامعاً وتسامع الناس أمرها من الأندلس وأهل الأمصار، فقصدوها في الأوقات المذكورة بضروب السلع وخيموا فيها، ثم بنوا شيئاً بعد شيء، فعمرت بقدمها القاسم بن ادريس بن ادريس فملكها وبنى سورها وقصرها وبها قبره.

[البكري، مسالك، ص 111-112]

23 ■ درعة

ومن مدينة سجلماسة إلى مدينة أغمات وريكة نحو من ثماني مراحل، ومن مدينة سجلماسة إلى مدينة درعة ثلاث مراحل كبار. ودرعة ليست بمدينة يحوطها سور ولا حفير، وإنما هي قرى متصلة، وعمارات متقاربة، ومزارع كثيرة. يتناول ذلك فيها جمل وأخلاط من البربر. وهي على نهر سجلماسة النازل إليهم، وعليه يزرعون غلات الحناء والكمون والكروياء والنيلج ونبات الحناء، يكبر بها حتى يكون في قوام

الشجر، يصعدون إليه ومنها يؤخذ بذره ويتجهز به إلى كل الجهات. ونبات الحنا لا يؤخذ بذره إلا في هذا الإقليم فقط، ولا يؤخذ بغيره من الأقاليم البتة. وأما النيلج المزروع في مدينة درعة فليس طيبه هناك، ولكنه يتصرف به في بلاد الغرب لرخصه. وربما خلط مع غيره من النيلج الطيب ويباع معه.

[الإدريسي، نزهة، ج 1، ص 226-227

24 ■ أجرسيف

مدينة أجَرْسيف: مدينة كبيرة لها بساتين كثيرة وهي على نهر مَلوِيَة وهو نهر كبير من الأنهار المشهورة، وكانت أجرسيف قرية كبيرة على نهر ملوية حتى خرج الملثمون من الصحراء فنزلوها ومدنوها، وبنوا عليها سوراً من طوب.

[مجهول، استبصار، ص 177

25 ■ تازة

وبين مدينة فاس ومدينة تلمسان، مسيرة عشرة أيام في عمائر متصلة. وقد ذكرنا أن آخر بلاد المغرب الأوسط وأول بلاد المغرب بلاد تازا، وهي جبال عظيمة حصينة كثيرة التين والأعناب وجميع الفواكه، وأكثر شجرها الجوز، وهو يجود بها كثيراً. ويسكنها قبائل من البربر يعرفون بغَيَاتة وقد بنى ببلاد تازا في هذه المدة مدينة الرباط، وهي مدينة كبيرة في سفح جبل مشرفة على بسائطه، يشقها جداول المياه العذبة، وعليها سور عظيم، وقد بنى بالجير والحصى، يبقى مع الدهر. وهي في فسحة على ٦ أميال ما بين جبال ينصب إليها من تلك الجبال مياه كثيرة، وأنهار تسقي جميع بساتينها في أعلاها وأسفلها، ولها نظر كبير، كثير الزرع وجميع الفواكه والخيرات، ولا أعلم ببلاد المشرق والمغرب بلداً أخصب منها ولا أكثر فوائد. وأسست هذه المدينة من نحو ٢٠ سنة، في حين توجه الخليفة رضه إلى فتح بلاد بني الناصر وشيدت سنة ٥٦٨ مدينة الرباط على الطريق المار من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق، وتسمى مكناسة تازا. ومكناسة قبيلة كثيرة من البربر سكنوا هناك، يسمى الموضع بهم.

[مجهول، استبصار، ص 186]

قيل ولم تكُن مكناسة في القديم بمدينة ممدنة، وكانت حوائر كثيرة متفرقة، وهي تاورا، وبنو عطوش، وبنو برنوس، وبنو شلوش، وبنو موسى، وهذه كلها على الضفة الغربية من وادي فلفل المذكور، إلا تاورا فإنها بضفتيه الغربية والشرقية، وغراساتها كلها منتظمة متصل بعضها ببعض لا فاصل بينها، وتاورا أقرب الحوائر إلى المدينة من جهة باب البراذعيين، ومن حوائرها أيضاً بنو زياد وتقع غرباً من الحوائر المذكورة وليست على الوادي المذكور، لكن لها منه جدول من نوع ساقية طويلة المسافة صعبة المجرا، ومن حوائرها أيضاً ورزيغة يذكر أن أصل أهلها روم، وتقع شرقاً من نهر فلفل، وبينهما مسافة، ولورزيغة حارتان قريبتان منها: بنو مروان وبنو غفجوم وبنو مروان أقرب إليها، وماؤها من وادي ويسلن من أودية مكناسة، وبها عيون، وكانت ورزيغة مخصوصة بالأمن يسكن أهلها الخيمات بالجنات فلا يلحق أحدهم خوف ولا يتوقعه إلا من جهة الأسد خاصة، وببني زياد أيضاً عيون يسقون بها بعض أملاكهم، ويسقون بعضها بالساقية المخرجة من وادي فلفل المذكور، وبعضها بعل، وكان العنب البعلى بها في غاية من الطيب بموضع هناك يقال له امترويء إليه ينسب المترويء قال الأستاذ أبو عبد الله بن جابر في **نزهة الناظر** بعد ما ذكر أصناف العنب التي بمكناسة:

لكنني أقول دون سوء ما فاق الأعناب سوى المترويء

وهو عنب أبيض شديد الحلاوة، ولا سيما الأنثى منه، ويذكر أنه من قوته لا يستحيل خمراً إلا عند اعتدال الزمان، ومن غلوهم فيه أنهم يقولون أنه يستصبح بخمره، وهنالك قرية كان يقال لها قرية الأندلس كانت من عمل بني زياد، سكنها على قديم الزمان- قوم أندلسيون وتناسلوا بها وأقاموا دهراً لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم إلا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد فإنه تغير لسانه، وكانت لهم بالقرية المذكورة كرمات بعل في أرض رملة حمراء (كذا قيل)، وهذه القرية، والله تعالى أعلم، هي المسماة في هذه الأعصر تلاجدوت وبها جرا المثل السائر (دار الكرامة يا تلاجدوت)، ومنها كان الشيخ أبو الحسن علي بن يوسف التلاجدوتي المدعو بسيدي علي بن يشو، وهو من شيوخ شيخنا الفقيه الحافظ سيدي أبي عبد الله محمد القوري، والخطيب البليغ المصقع سيدي أبي العباس أحمد بن سعيد الحباك

الغفجميسي، وكلامهم اليوم برطانة البربر المفرطة في العجمة.

وكانت حارة تاورا التي هي أقرب الحوائر إلى المدينة الآن يشقها وادي فلفل، ديارها على ضفتيه شرقاً وغرباً، والغراسات بها وبسائر الحوائر متصلة بالديار، وبتاورا أرحاء كثيرة كان أكثرها يحتوي على أربعة أحجار، وكان من جملتها بيت واحد للزغابشة يحتوي على خمسة أحجار، وكان فيها حمامان اثنان، أحدهما منسوب للزغابشة، والثاني للمختص يعرف بحمام أبي الخيار، بإزائه عين كبيرة تنسب كذلك لأبي الخيار، ماؤها عذب معين صاف تسقى بها طائفة كثيرة من أملاك تاورا، ومن أملاك من تحتها، وكانت حارة تاورا تنقسم أقساماً قسم يقال له بنو عيسى ديارهم بالضفة الغربية من الوادي يذكر أنهم أصل بني زغبوش، لكن لا نعلم صحة ذلك، غير أنهم كانوا يجدون في بعض العقود القديمة نسبتهم إلى عيسى بلفظ فلان بن فلان العيسوي، ويستدلون بذلك على أن بني زغبوش من بني عيسى والله تعالى أعلم، وقسم بالضفة المذكورة قبلة من بني عيسى يقال له بنو يونس، ويسمى أيضاً هذا القسم تاورا الفوقية، وبهذا القسم كان المسجد الجامع، وبين هذين القسمين موضع عال جداً يعرف بالجهنمية، وقسم بالضفة المذكورة يقال له فاس الصغيرة، كأنها سميت بذلك لاختراق الماء خلالها كمدينة فاس، وبالضفة الشرقية من الوادي قسم يقال له الجنان الصغير، وقسم يسمى بني أبي نواس، وقسم يسمى حارة بني زغبوش، وحارة الزغابشة، وثم كانت ديار بني محمد بن حماد وغيرهم، وكان ببني زياد حمام وببني مروان حمام يعمران، وكان ببني موسى حمام تعطل قبلهما والله تعالى أعلم.

وكانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار وكان أهلها ءامنين مطمئنين في عيش رغد ونعمة تامة منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين فانقطعت مطامع رءوس النفاق من بربر المغرب.

قيل ولم يكن لهذه الحوائر قديماً مدينة مسورة، وكان واليها يسكن قصراً أدركه القدماء خرباً يعرف بقصر ترزكين ولعل جيمه معقودة، وهو على ربوة من الأرض شرقاً من بني زياد وغرباً من وادي فلفل وجوفاً من المدينة الآن، فلما ظهر أمر الموحدين أحدث المرابطون على الوادي المذكور غرباً منه حصناً سموه تكرارت بالجيم المعقودة، وكذلك بقي اسمه، وتفسير هذا اللفظ المحلة أو المجتمع بلسان البربر،

هكذا قيل، وهذا الحصن هو المدينة الموجودة لهذا العهد، فلما أخذوا في بنائها اجتهدوا فيه وأعجلهم الأمر حتى احتاجوا على ما يحكا إلى إقامة شقة من سوره بالأهرية المتخذة من الدوم لادخار الأطعمة ويسمى واحدها بلسان البربر أسكل وملأوها تراباً وقاتلوا دونها حتى أكملوا البناء بعد ذلك، وفي القطر الغربي من أبراج سورها برج مبني بالحجر والجير بناءً محكماً يسمى برج ليلة سمي بذلك لأنه بني من ليلته فيما زعموا، ونقل الوالي يدر بن ولكوط بالجيم المعقودة إلى المدينة المذكورة وجوه الناس وأغنياءهم ولم يترك من الأقوات شيئاً إلا نقله إليها، وترك جمهور الناس في مواضعهم، فأول غارة شنها الموحدون على تلك الأرض بسوق الغبار يوم الأحد، وذلك أنه لما وضعت هذه الموضوعات على الصفة المذكورة من التفرق كانت لهم سوق غبار بإزاء قصر ترزجين المتقدم الذكر وهو الذي يسمى بالسور القديم بالراء أو بالسوق القديم بالقاف كما يجري على ألسنة الناس اليوم، ومسجد الحصن المذكور وصومعته لا يزالان قائمين لهذا العهد، وكان أهل الحصن وأهل الحوائر يجتمعون إلى تلك السوق يوم كل أحد، فبينما هم يوم أحد قد اجتمعوا وكملوا بالسوق المذكورة وهي بأرض مرتفعة إذ أشرفوا على خيل مقبلة إليهم في زي المرابطين: اللثم والغفائر القرمزية والمهاميز التاشفينية والسيوف المحلاة والعمائم ذوات الذؤابات، فلما رأى القوم هذا الزي قالوا: تقوية السلطان جاءتنا وسارعوا للقائهم فرحين بهم وهبطوا عن ءاخرهم، فلما خرجوا عن منع القصر والسوق حسر الفرسان اللثم ونادوا: أبابا يا المهدي! وكان ذلك شعارهم وأجالوا السيوف عليهم، ولم ينج واحد منهم فيما ذكر، وكانوا ءالافاً رحمهم الله، وما زال الناس لهذا العهد يتحدثون أن المقابر التي عند باب مسجد السوق القديم هي مقابر شهداء، فلعلهم هم والله تعالى أعلم، وكان الموحدون حينئذٍ يسمون الناس المجسمين ويقاتلونهم قتال كفر، وكان الناس يسمونهم الخوارج، ولم تزل الغارات تشن عليهم فيقتل الرجال وتسبى النساء والذرية وتستباح الأموال، والتضييق يتوالا والمكائد تدبر والحيل تدار حتى ضاق ذرع الناس بكثرة الوقائع عليهم.

[ابن غازي، روض، ص 8-15]

27 ■ **القصر الكبير**

وقد جرى ذكر القصر كثيراً. وهي مدينة سهلية، على واد كبير شتوي يقال له

لكس بالعدوة الشمالية منه. وذكره ابن خلدون في العشر الأول الغربي من أجزاء الإقليم الثالث. وغالب الظن أن التي ذكرها أبو عبيد البكري في كتابه **المسالك والممالك** غير هذه وأن تلك كانت بالموضع المعروف الآن بالغرفة فدثرت وبقيت هنالك رسوم منها، وتعرف بالقصر الكبير، وقصر كتامة، وقصر عبد الكريم. فأما الإسمان الأولان فليتميز من القصر الصغير الذي يعرف بذلك وبقصر مصمودة لأنه في بلادهم وإن خفي اسمهم هنالك، وبقصر الجواز لأنه فرضة المجاز لعدوة الأندلس لكون البحر الذي هو على مكسر موجه أضيق موضع في بحر الزقاق، فعرضه نحو اثني عشر ميلاً. وقد كانت البلاد التي بها القصر الكبير لكتامة فذهب اسم كتامة إلاّ عن جماعة ضعيفة على وادي لكس بالعدوة الجنوبية، قبل وصوله إلى القصر. وغالب الظن أن القبائل التي هو في بلادها كلها كتامة وإن ذهب الإسم عنها، وتعرف الآن بأهل سريف.

وأما عبد الكريم الذي يضاف إليه، فإنه رئيس من رؤسائهم كان فيه، وسمعت شائعاً من أهل تلك البلاد، أنه قصده جيش السلطان، ففر إلى الدّمنة وتحصن بها، ثم ألقى نفسه وهو على فرسه من موضع هنالك ينعتونه من سورها، وأنه وصل إلى الأرض سالماً هو وفرسه. ثم لا يذكرون الآن ما كان بعد ذلك من أمره. وهي قلعة منيعة في قنة جبل، على شفا جرف سحيق المهوى، على مسيرة يوم من القصر مما يلي الشمال الشرقي. وما زال كثيراً من سورها ماثلاً، وقد رأيته من بعض المواطن القريبة من ذلك الجبل. وتلك البلاد لبني جرفط. وقد قال القاضي عياض في **المدارك** أن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن العجوز الكتامي طلب العلم وسمع من أبيه. وكان أكثر مدته في قومه كتامة رأساً فيهم، وهم له على طاعة. وقتله المرابطون عند غلبتهم على كتامة، ودخولهم قلعتهم الدمنة.

وقال الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد ابن العزفي في **فهرسته** في ذكر شيخه الشيخ الفقيه القاضي الجليل أبـي تميم المعز بن منصور الزهيلي: ولي قضاء قصر كتامة وهو في حكم القرى. فلم يزل يربـي أهله، ويرشح أزكياءه للشهادة، وطلبته للخطط، ويحوط سكانه ويسعى على الظالمين الذين لا يقدر على الانتصاف منهم بالولاة والسلطان، ويعين تجاره وأهل الفلاحة والحراثة، حتى انجبر جمهورهم واستغنى أكثرهم حتى استوطنه أكثر الرحالين، ونافس في سكناه أكثر المسافرين.

ولجأ إليه كثير من كل بلاد الأندلس، وبخاصة أهل غرب الأندلس كشنترين والاشبونة. ومن بناتها قصر أبي دانس، عمره الله، ويابرة جبرها الله. فاتسع فناؤه، وكثر جزاؤه، واسمع نداؤه، وارتفع بناؤه. فصار في عداد البلاد. وصلح لاتخاذ الطريق والتلاد، انتهى. وكان ذلك على أيام يعقوب المنصور أو أبيه يوسف...».

[الفاسي، مرآة، ص 145-146]

الباب الثاني

المدينة والحكم

الفصل الأول

المدينة ككيان سياسي

وفرض المذهب المالكي على أهل فاس

وفي العشر الأخر من شوال من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ورد كتاب الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن يذكر انصراف محمد بن وليد ومحمد بن موسى من بني الطويل، رسوليه من مدينتي فاس المتوجهين إلى أميريهما عبد الكريم بن يحيى صاحب عُدوة الأندلسيين من فاس، ومحمد بن حسن صاحب عدوة القرويين منها المقترن بهما في رسالته إليهما باستجابة جميعهم لما دُعُوا إليه من إمحاض الطاعة والقيامة ببيعتهم التي أعطوها وعقدوها عن كتب أمير المؤمنين الواردة عليهم المقروءة على عوامهم في جوامعهم بما يحتملون عليه من أداء طاعتهم من الدخول في الجماعة واتباع السنة والعمل بمذهب مالك بن أنس، إمام أهل المدينة ـ رضي الله عنه ـ وإقامة النافلة في شهر رمضان المعظم وتوقفهم عن العمل بما كانت ضلال الشيعة زرعته عندهم من البدع والتبديل والتحريف، وأنهم تقبلوا جميع ما أُمِرُوا بالتزامه من جميع ذلك، ودخلوا فيه أفواجاً ونبذوا ما عداه شاكرين لله تعالى على هداه، حامدين لمن تحداهم به وحملهم على سننه. وذكر الوزير غالب بن عبد الرحمن أن عبد الكريم بن يحيى ومحمد بن حسن صاحبه وجها إليه رهائنهما مع كتابي بيعتهما، وأن علي بن خلوف وجه إليه بابنه رهينة مع كتاب بيعته، فاستوسق أهل المغرب على الطاعة؛ فكانت نسخة بيعة عبد الكريم بن يحيى صاحب عدوة الأندلسيين ما نصه هذا: «بسم الله الرحمن الرحيم كتاب بيعة عبد الكريم بن يحيى وجماعة الأندلسيين بني عمه من أهل حاضرة فاس، كتبوه وثيقة وحجة على أنفسهم وأشهدوا الله وملائكته وأنبياءه ورسله وأولي العلم من خلقه ومن حضر من جماعة

المسلمين أنهم بـايعـوا الله عـز وجـل والإمـام العـدل الحكم المستنصـر بـالله أمير المؤمنين، وألزموا أنفسهم طاعته ليوالوا مَنْ والاه ويعادوا مَنْ عاداه وينصروا من نصره، ولا يلبسوا ولا يدلسوا ولا يوالوا أحداً سواه، ألزموا ذلـك أنفسهم بالإيمـان المؤكدة اللازمة لهم، وفي أعناقهم عهـد الله المؤكد الـلازم لهم والمشي إلى مكة وعليهم صدقة أموالهم للمساكين؛ وبالله الذي لا إله إلا هو الطالب الغالب المهلك المدرك الرحمن الرحيم أنهم لبرءاء من الشيعة وأهلها وأن يواقوهم ولا يراسلوهم سراً ولا إعلاناً، تقاربوا منهم أو تباعدوا عنهم، وأنهم مستمسكون بالطاعة العاصمة من الزيغ والخلافة المكرمة القائمة بالحق التي وطد الله مبناها وشرفها وعظمها على من سواها، وأشهدوا الله وملائكته ورسله وأهل العلم من خلقه على ما ألزموه أنفسهم من القيام بالطاعة والعمـل بفروضهـا ومسنونهـا، وأوجبوا ذلـك على أنفسهم كوجـوب ما لزمهم من فروض دينهم، إذ لا تتم ديانتهم إلا بـالتصحيح لإمـامهم واتباع أمـره والوقوف عند نهيه فعند أدائهم الطاعة يسلم لهم دينهم ودنياهم وآخرتهم وأولادهم ﴿ومَنْ نكثَ فإنما ينكثُ على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسَيُؤتيه أجراً عظيماً﴾ (الفتح: ١٠) وتاريخه عقب رمضان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وذلك بمحضر من علماء البلد وفقهائه وأهل الفضل منهم الذين ألزموا أنفسهم الطاعة والتزموا الإيمان المؤكدة وذلك في صحة من عقولهم وأبدانهم وكفى بالله شهيداً. وخط في أسفله خمسة وثلاثون رجلاً أسماءهم.

[ابن حيان، مقتبس، ج 3، ص 174-175]

29 ■ أغمات: الحكم بالتناوب

وكانت أمرة أهل أغمات دولاً بينهم، يتولى الرجل سنة، ثم يديلونه بآخر منهم عن تراض واتفاق. كذلك ذكر محمد بن يوسف القيرواني.

[البكري، مسالك، ص 153]

30 ■ واقع الطوائف بالمغرب

وكان أهل المغرب يتولون أمور بلادهم، وأمراؤهم يتولون الإمارة بينهم، إلى أن تغلب كلٌ شخص منهم على موضعـه، كما فعـل ملوك طـوايف الأنـدلس. فمـرَّ

عبد الله بن ياسين ببلاد المصامدة بعد مُنْصَرَفه من الأندلس فوجدهم يغيرون بعضهم على بعض يغنمون الأموال ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون إلى طاعة امام. فكان من عبد الله بن ياسين بعض الالهام أن قال لبعضهم: «ألا تعرفون الله ربكم ومحمداً رسولكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام» فقالوا له «نعم عرفنا الله ربنا ومحمداً نبينا ـ ﷺ ـ» فقال لهم عبد الله: «فما لكم بدلتم وغيرتم؟ هلا قدمتم عليكم إماماً يحكم بينكم بشريعة الإسلام وبسنة النبـي عليه السلام؟» فقال له بعض أشياخ المصامدة: «لا يرضى أحد منا ينقـاد إلى حكم أحد من غيـر قبيله» فتركهم ورحل عنهم إلى بلاد جزولة فكان من أمره مع يحيى بن إبراهيم وجدالة مـا تقدم ذكره.

[ابن عذاري، بيان، ج 4، ص 10]

31 ـــــــــــ ■ برغواطة بين العداء والتبادل التجاري

وكـان أهل البصـرة ومدينـة فاس يغـزونهم في بعض الأوقات، ويسـالمونهم ويتاجرونهم ويجلبون إليهم التجارات على ما يرونه وُلاتهم. وفي برغُواطة أمانةٌ وبذلٌ للطعام، وتجنّبٌ للكبائر من الحرام والمحظورات من الآثام. وقد يصل إليهم أهل أغْمات والسُوس أيضاً بالتجارة، وكذلك قوم من أهل سِجِلَمَاسَة. وبلدهم بلد مستقلّ بنفسه عن الحاجة إلى ما في غيره. وفيهم جمال بارع، وشدّة وبأس وصبر على القلاء والمِراس. وكنتُ ألفيتُ محمّد بن الفتح المعروف بالشاكر لله بِسجِلْمَاسة يدعو إلى غزوهم في ستة أربعين وثلثمائة، وأظنّه هلك ولم يبلغ منهم مَحابَّة لقلّة إجابة من كان يدعوه إلى غزوهم من البربر، وخوفهم من اطّراد حيلة لمحمّد بن الفتح الشاكر لله عليهم في ذلك.

[ابن حوقل، صورة، ص 83]

32 ـــ ■ «في وجود العصبيّة بالأمصار. وتغلب بعضهم على بعض»

من البيّن أن الالتحام والاتصال موجود في طباع البشر، وإن لم يكونوا أهـل نسب واحد، إلا أنه كما قدّمناه أضعف مما يكون بالنسب، وأنه تحصل به العصبية بعضاً مما تحصل بالنسب. وأهل الأمصار كثيـر منهم ملتحمون بـالصهر، يجـذب

بعضهم بعضاً إلى أن يكونوا لحماً لحماً، وقرابة قرابة، تجد بينهم من العداوة والصداقة ما يكون بين القبائل والعشائر مثله، فيفترقون شيعاً وعصائب. فإذا نزل الهرم بالدولة وتقلّص ظل الدولة عن القاصية، احتاج أهل أمصارها إلى القيام على أمرهم، والنظر في حماية بلدهم، ورجعوا إلى الشورى وتميز العلية عن السّفلة. والنفوس بطباعها متطاولة إلى الغلب والرياسة، فتطمح المشيخة ـ لخلاء الجو من السلطان والدولة القاهرة ـ إلى الاستبداد، وينازع كل صاحبه، ويستوصلون بالأتباع من الموالي والشيع والأحلاف. ويبذلون ما في أيديهم للأوغاد والأوباش، فيعصوصب كل لصاحبه، ويتعين الغلب لبعضهم، فيعطف على أكفائه، ليغض من أعنتهم. ويتتبعهم بالقتل أو التغريب، حتى يخضد منهم الشوكات النافذة، ويقلّم الأظفار الخادشة. ويستبد بمصره أجمع. ويرى أنه قد استحدث ملكاً يورثه عقبه، فيحدث في ذلك الملك الأصغر ما يحدث في الملك الأعظم، من عوارض الجدة والهرم.

وربما يسمو بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الأعاظم، أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات والزحوف والحروف والأقطار والممالك؛ فيتحلّون بها؛ من الجلوس على السرير، واتخاذ الآلة، وإعداد المواكب للسير في أقطار البلد، والتختم والتحية، والخطاب بالتهويل؛ ما يسخر منه من يشاهد أحوالهم؛ لما انتحلوه من شارات الملك التي ليسوا لها بأهل. إنما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتحام بعض القرابات، حتى صارت عصبية. وقد يتنزه بعضهم عن ذلك ويجري على مذاهب السذاجة فراراً من التعريض بنفسه للسخرية والعبث. وقد وقع هذا بإفريقية لهذا العهد في آخر الدولة الحفصية لأهل بلاد الجريد، من طرابلس وقابس وتوزر ونفطة وقفصة وبسكرة والزاب، وما إلى ذلك. سموا إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين؛ فاستغلبوا على أمصارهم واستبدوا بأمرها على الدولة في الأحكام والجباية وأعطوا طاعة معروفة وصفقة ممرضة، وأقطعوها جانباً من الملاينة والملاطفة والانقياد، وهم بمعزل عنه. وأورثوا ذلك أعقابهم لهذا العهد. وحدث في خُلُقهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك وخلفهم. ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين، على قرب عهدهم بالسوقة، حتى محا ذلك مولانا أمير المؤمنين أبو العباس، وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما نذكره في أخبار الدولة. وقد كان مثل

ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية، واستقل بأمصار الجريد أهلها، واستبدوا على الدولة، حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحّدين وملكهم عبد المؤمن بن علي، ونقلهم كلهم من إمارتهم بها إلى المغرب، ومحا من تلك البلاد آثارهم كما نذكر في أخباره. وكذا وقع بسبتة لآخر دولة بني عبد المؤمن. وهذا التغلب يكون غالباً في أهل السروات والبيوتات المرشحين للمشيخة والرياسة في المصر، وقد يحدث التغلب لبعض السِّفلة من الغوغاء والدهماء. وإذا حصلت له العصبية والالتحام بالأوغاد، لأسباب يجرها له المقدار؛ فيتغلب على المشيخة والعِلية، إذا كانوا فاقدين للعصابة. والله سبحانه وتعالى غالب على أمره.

[ابن خلدون، عبر، ج 2، ص 672-674]

الفصل الثاني

المدينة والمراقبة المخزنية

33 ■ دولة الموحدين وقضية مراكش

وبقيت مراكش لم يدخلها داخل ولم يخرج منها خارج ثلاثة أيام، وكانوا يتشاورون على سكناها، فامتنع الموحدون أن يسكنوها، فقام إليهم الفقهاء فقالوا لهم لأي شيء لا تسكنوها؟ فقال لهم الموحدون امتنع المهدي من ذالك، ولا سيما تشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة التي لا عوج فيها ولا تحريف لأمة محمد عليه السلام، والتشريق والتحريف لغيرها من اليهود وغيرهم، فقال الفقهاء تطهر وتسكنونها، فقالوا لهم وما تطهيرها؟ فقال الفقهاء تهدم جوامعها وتبنا جوامع أخرا، فهدمت جوامعها لأجل تشريقها وتحريفها عن القبلة وإمالتها إلى المشرق، وهدم فيها جامع علي بن يوسف ولم يهدموه كله بل هدموا بعضه، وأرسل الأمناء إلى المدينة مع الوزير، وكان السبي يضمون للمخزن أنماه الله ما كان من الحلي والقش والسلاح وما كان بالمدينة كلها رُفع للمخزن وابتيع النساء، ورجع كل شيء إلى المخزن، وحينئذٍ دخل الخليفة رضي الله عنه البلد وقسم أزقتها بالمروس للموحدين فسكنوها شهراً.

[البيدق، أخبار، ص 66]

34 ■ أغمات تواجه الاحتلال الموحدي

وخرج يوم الأربعاء جميع أهل أغمات حتى التجار، فتنادب الموحدون أعزهم الله على القتال، وكان المدبرون لأمر الموحدين أعزهم الله تعالى ثلاثة رجال: سيدنا ومولانا الخليفة الإمام أمير المؤمنين، وأبو حفص عمر بن علي أصناج،

وأبو عمران موسى بن تمارا الجدميوي، رتبوا الصفوف. فكانت الهزيمة وأخذت جميع المحلات، وقتل من أهل أغمات مقتلة عظيمة، ومات فيها من جناوة ثلاثة آلاف أسود، ومشت الهزيمة إلى أن وصل الموحدون أعزهم الله تعالى أفراج يوسف بن وغواد، فباتوا هنالك ليلة الخميس.

[ابن القطان، نظم، ص 158]

35 ■ احتلال مدن سوس(*)

وذلك أن فيها فتح السوس وأن الموحدين أعزهم الله تعالى لما استولوا على بلاد السوس من أوله إلى آخره، من فوقه إلى أسفله، فقتل أهله، وانجلى من لم يقتل منهزمين إلى كل أفق مما حواليه من هنكيسة وجزولة، وبعضهم قد انحصر مع الملثمين بتيونوين، فكان آخر هزائمهم التي هزمهم الموحدون أعزهم الله تعالى فيها هي الهزيمة التي قتل فيها توجين؛ ثم قنطوا من سوس ويئسوا منه، فانقبضوا بتيونوين في ذل وخزي ورعب، لا يستطيعون حيلة، ولا يقدرون على حركتهم، والحمد لله الذي أظهر ضعفهم، وأخذهم بسوء فعلهم.

ولما بلغوا هذا المبلغ زادهم الله تعالى استدراجاً ومكراً، فقام المخذول العلج الأعرج من أجر فرجان، فاقتحم بنفسه في طرْيق إيغيران تطوف في حال غفلة من الموحدين أعزهم الله تعالى الذين عليها حتى جاز عليهم. ولم يشعروا به حتى فاتهم بمن معه هاربين، فاتبعهم الموحدون حتى وصلوا إلى بلاد السوس، ولا شك في أن الله تعالى قد علم في ذلك خيراً، إذ هو المدبر لهذه الأمور، ولم يكلها إلينا، والحمد لله رب العالمين.

ولم يصل العلج إلا بنحو أربعمائة برذون، فلما وصلٍ إلى تيونوين تسامع به من فر إلى الأطراف من بقية أهل سوس، فكان هو معبودهم ومتبعهم، فاتكلوا عليه ونسوا ربهم، وجهلوا أمر الله تعالى، واغتروا بقدومه، فرجعوا إلى أوطانهم. وحسبوا أنه يمنعهم من بأس الله مع أنهم لم يجدوا في الدنيا مهرباً ولا ملجأ، فبادروا إلى النزول في بلادهم، فميزنا عسكراً مباركاً من خيل ورجل، فخرجوا إلى ناحية تارودانت، وبعثنا تلك الليلة سرية إلى أسفل السوس، فوجدوا بلاد المجسم معمورة قد سكنوا

(*) يشير النص إلى القائد رڤرتير، الذي كان من أصل مسيحي، وهو المعروف «بالعلج الأعرج».

بـأهاليهم ومـواشيهم، فقتلوهم وغنموا أمـوالهم بقراً وغنمـاً ودواب وعبيداً، وسبـوا ذراريهم وأهاليهم، ورجعوا سالمين غانمين. ثم بعثنا سرية أخرى في الليلة التي تليها إلى بقية تلك الناحية، أعنى أسفل السوس، فقتلوا مقتلة أكثر من الأولى، وغنموا أكثر مما غنم أصحابهم.

وأما العسكر فقصدوا إلى تارودانت حتى دخلوها، فوجدوا البقية التي رجعت إليهـا هاربين قـد بعث إليهم الملثمون المحصـورون بتيونـوين حين عاينـوا عسكر الموحدين أعزهم الله تعالى قد أقبل إليهم فقالوا لهم: انجوا بأنفسكم! قد غشيكم عسكر الموحدين أعزهم الله تعالى، فهربوا إلا بعض من كان في أطراف البلد مثل تاجندويت ورقالة، فقتل الموحدون من وجدوا.

ثم نزل الموحدون في وسط تارودانت، واستقروا بها ساكنين وهزموها وحرقوها وأطلقوا النار في القصب، إذ لا يقدر عليه من كثرته إلا بالنار، ونحن ننظر إلى الدخان قد علا وارتفـع في الهواء، وتـألف فصار كـالسحاب المتـراكم، والكفرة بتيـونوين لا يقدرون على أكثر من النظر إلى الدخان والنيران تضرم في منازلهم وأوطانهم، وهم مع العلج لم يزدادوا بقدومه عليهم إلا شدة هول وحصار وخوف وجوع، ولما أيقن البربر وغيرهم بعجز العلج انكسرت قلوبهم، واستمرت الهزيمة عليهم؛ والحمد لله الذي أخذهم بذنوبهم، وانتقم منهم بحربهم.

[ابن القطان، نظم، ص 237-239]

36 ■ حصار مكناس

وبقي الجيش محاصراً للمدينة وصاحب المدينة يبالـغ في نكايـة الموحـدين والنيل منهم والخنادق لا تغني عن محلتهم شيئاً، ذكر أنهم حفروا أول خندق قريباً من المدينة فضيق عليهم المرابطون ومن معهم في المدينة حتى رجعوا وراءهم، وخندقوا ءاخر ولم يزالوا كذلـك يضيقون عليهم ويـرجعون وراءهم ويخنـدقون حتى أكملوا سبعة، وأمر الموحدين يستوثق وينتشر ويزيد ظهوراً، والقبائل تتابعهم وتـرد عليهم أفواجاً، والفتوح تتناسق، وسكان الجبال ينزلون إليهم من صياصيها مذعنين، حتى أن من نظر مكناسة ونواحيها جبلاً كبيراً مانعاً خصيباً يقال له زرهون وفيه من الخلق أمة كثيرة لا تحصا عدة أرسلوا ببيعتهم مع جماعة منهم إلى عبد المومن بن علي وهـو

يومئذٍ بين الصخرتين من أحواز تلمسان، وجراوا الموحدين على دخول المغرب وأعانوهم على محاصرة مدينة مكناسة، فكانوا أبداً مبغضين لأهل تلك البلاد، وكانوا بسبب سبقهم أحراراً من المغارم، كتب لهم بذلك صكوكاً كانت بأيديهم، ولم يتعرض لأموالهم كما فعل بالأملاك التي أخذت عنوة، لكنهم كلفوا ءاخراً من الكلف الطارئة ما لم يكن لهم بحمله طاقة ولم ينفعهم بدارهم، وكان ظلمة العمال يسمون هذا الجبل جبل الذهب (. . .) فلما رأى الموحدون انقياد الناس إليهم وتوالى الفتوح عليهم احتقروا حصن مكناسة واستطالوا مدة إقامة الجيش عليه، وظنوا بصاحب الجيش تقصيراً، فبعث عبد المومن بن علي أحد عظماء الموحدين ليطلع على ذلك، فوافا الجيش وعاتب أميره واستنقص جده وحقر الحصن وأميره، فأرسل أمير الجيش إلى أمير المدينة يدر بن ولكوط يخبره بما لقي من الواصل إليه، وسأل منه عملاً تقوم له به الحجة عليه، فبينما الموحدون قد اجتمعوا للقتال وهم يتفاوضون في كيفيته، ويتواصون بالعزم والصبر، إذا بباب المدينة قد فتح لعشرة من الفرسان ودفعوا كأنهم الطير سرعة، أو الرعد صولة، وضربوا في الجيش، وتبعهم عشرة بعد عشرة إلى أن كملوا خمسين، ونالوا من جيش الموحدين نيلاً عظيماً، فرأى الواصل من إقدامهم وجرأتهم وقوة شوكتهم وشدة بأسهم ما هاله، فقال بلسان المصامدة (ذأ امطيرايا) ومعناه هذا عجب، وظهر عذر أمير الجيش فيما ظن به من التقصير، وتمادا الحصار واشتد التضييق وفنيت الأقوات، واضطر الناس قتلاً وجوعاً، وفتحت البلاد للموحدين بالمغرب والأندلس طوعاً وعنوة، ومات الأمير تاشفين بن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين (. . .) ودخل الموحدون المدينة فسفكوا الدماء وسبوا النساء والذرية واستباحوا الأموال، وتمادوا على ذلك يوماً كاملاً، ونادا مناديهم في ءاخر النهار برفع السيف، وعظم البلاء في ذلك اليوم على الناس، وكان ذلك في أول عام خمسة وأربعين وخمسمائة (. . .) وكان نزول الموحدين على مكناسة في القول الصحيح آخر عام أربعين، فمدة الحصار على هذا أربع سنين وأشهر، وبقيت المدينة خالية إلا من فل الموت قتلاً وجوعاً، وتفرق ذلك الفل وانتثر عقد نظام الناس وجلا بعضهم واشتغل بعضهم بطلب المعايش، وتعلقوا بالحرف والصنائع، وتملك الموحدون البلاد والأموال (. . .).

[ابن غازي، روض، ص 19-23]

لما ملك الأمر أبو يحيى بن عبد الحق بمدينة فاس سنة ست وأربعين [646/ 1248-1249]، استولى على بلاد المغرب بعد مهلك السعيد. وقام بأمر الموحدين بمراكش أبو حفص عمر المرتضى بن السيد أبي إبراهيم إسحاق الذي كان قائد عسكر الموحدين في حربهم مع بني مرين عام المشغلة، ابن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن. كان السعيد تركه والياً بقصبة رباط الفتح من سلا؛ فاستدعاه الموحدون وبايعوه بيعة الخلافة. وقام بأمرهم؛ فلما تغلب الأمير أبو يحيى على بلاد المغرب وملك مدينة فاس كما ذكرناه؛ خرج إلى بلاد فازاز والمعدن لفتح بلاد زناتة وتدويخ نواحيها. واستعمل على فاس مولاه السعود بن خرباش، من جماعة الحشم أحلاف بني مرين وصنائعهم. وكان الأمير أبو يحيى استبقى بها من كان فيها من عسكر الموحدين من غير عيصهم في السبيل التي كانوا عليها من الخدمة. وكان فيهم طائفة من الروم، استخدمهم إلى نظر قائدهم شأنه، وكانوا من حصة السعود هنالك. ووقعت بينهم وبين شيع الموحدين من أهل البلد مداخلة، وفتكوا بالسعود عاملهم وقلبوا الدعوة للمرتضى الخليفة بمراكش سكيت الحلبة ومخلف المضمار. وكان المتولي لكبر تلك الثورة بن حشار المشرف وأخوه وابن أبي طاطو وابنه، اجتمعوا إلى القاضي أبي عبد الرحمن المُغَيْلي، زعيم فئة الشورى بينهم يومئذٍ وتوامروا فيها. وأغروا قائد الروم بقتل السعود، وعدوا عليه بمقعد حكمه من القصبة، وهاجوه ببعض المحاورات فغضت. ووثب عليه الرومي؛ فقتله وطاف برأسه الهاتف بسكك المدينة في شوال سنة سبع وأربعين. وانتهبت داره، واستبيحت حرمه. ونصبوا قائد الروم لضبط البلد، وبعثوا بيعتهم إلى المرتضى. واتصل الخبر بالأمير أبي يحيى، وهو منازل بلد فازاز؛ فأفرج عنها. وأغذ السير إلى فاس؛ فأناخ بعساكره عليها. وشمر لحصارها، وقطع السابلة عنها. وبعثوا إلى المرتضى بالصريخ؛ فلم يرجع إليهم قولاً؛ ولا ملك لهم ضراً ولا نفعاً؛ ولا وجه لما نزل بهم وجهاً. حاشا إنه استجاش بالأمير أبي يحيى يغمراسن بن زيان على أمره، وأغراه بعدوه، وأمله لكشف هذه النازلة عمن انحاش إلى طاعته.

وتعلقت أطماع يغمراسن بطروق بلاد المغرب؛ فاحتشد لحركته. ونهض من تلمسان للأخذ بحجزة الأمير أبي يحيى عن فاس، وإجابة صريخ الخليفة لذلك.

وبلغ الأمير أبا يحيـى خبر نهوضه إليه لتسعة أشهر من منازلته البلد؛ فجمر الكتائب عليها. صمد إليه قبل وصوله من تخوم بلاده، والتقى الجمعان بايسلى من بسائط وجدة؛ فتزاحف القوم وأبلوا. وكانوا ملحمة عظيمة، هلك فيها عبد الحق محمد بن عبد الحق بيد إبراهيم بن هشام من بني عبد الواد. ثم انكشف بنو عبد الواد، وهلك يغمراسن بن تاشفين من أكـابر مشيختهم، ونجـا يغمراسن بن زيَّـان إلى تلمسان. وانكفأ الأمير أبو يحيـى إلى معسكره للأخذ بمخنق فاس فسقط في أيدي أهلها؛ ولم يجدوا وليجة من دون طاعته، فسألوا الأمان، وبذله لهم على غرم ما تلف له من المال بداره يوم الثورة؛ وقدرهماية ألف دينار؛ فتحملوها. وأمكنوه من قياد البلد؛ فدخلها في جمادى من سنة ثمان وأربعين. وطالبهم بالمال؛ فعجزوا ونقضوا شرطه؛ فحق عليهم القـول. وتقبض على القاضي أبـي عبـد الرحمن وابن أبـي طـاطـو وابنـه، وابن حشار وأخيه المتولين كبر الفعلة فقتلهم، ورفع على الشرفات رؤوسهم. وأخذ الباقين بغرم المال طوعاً أو كرهاً؛ فكان ذلك مما عبد رعية فاس وقادهم لأحكام بني مرين. وضرب الرهب على قلوبهم لهذا العهد؛ فخشعت منهم الأصوات وانقادت الهمم؛ ولم يحدثوا بعدها أنفسهم بغمس يد في فتنة. والله مالك الأرض ومن عليها.

[ابن خلدون، عبر، ج 13، ص 358-361]



38 ـــــــ ■ دار الملك والحاضرة

ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس، كما كانت القيروان حـاضرة المغـرب، فلما اضـرب أمر القيـروان ـ كما ذكـرنا ـ بِعَيْث العـرب فيهـا، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبـي عامر محمد بن أبي عامر وابنه، رحل منهما ومن كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة، فراراً من الفتنة، فنزل أكثرهم مدينة فاس، فهي اليوم على غاية الحضارة، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم، وما زلت أسمع المشايخ يدعونها

بغداد المغرب، وبحق ما قالوا ذلك، فـإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الـظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب، ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتـونة، فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها، وما أظن في الدنيا مدينـة كمدينـة فاس، أكثـر مرافق، وأوسع معايش، وأخصب جهات، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها، ويتخلل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً ينغلق عليها أبوابها ويحيط بها سورها، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها ـ إلا ما كان من العطر الهندي ـ سوى مدينة فاس هذه، فـلإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة، بل هي توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً.

[المراكشي، **معجب**، ص 504-506]

39 ـــــــــــــــ ■ المدينة المخزنية: تأسيس فاس الجديد

وفي ثاني شوال من هاذه السنة [674/ 1274-1275] قتل اليهود بفـاس، قامت عليهم العامة فقتل منهم أربعة عشر ألف يهودي، ولولا ما ركب أمير المسلمين فكف العامة عنهم ونادا مناديه لا يتعرض لهم أحد لم تبق منهم باقية

وفي اليوم الثالث من شوال المذكور أمر أمير المسلمين يعقوب ببناء البلد الجديد، فأسس على وادي فاس، وشرع في بنائه وحفر أساسه في ذالك اليوم، وركب أمير المسلمين فوقف عليه حتى حد وأسس وأخذ له الطالع الفقيه المعدل علي ابن القطان، والفقيه محمد ابن مبارك، وكان تأسيسه في طالع سعيد ووقت ميمون مبارك، ومن بركته وسعادة طالعـه أنه لا يموت فيه خليفة ولم يخرج قط لواء منه إلا نصر، ولا جيش إلا ظفر.

وفي شوال المذكور أمر أمير المسلمين ببناء قصبة مكناسة وجامعها

[ابن أبـي زرع، **قرطاس**، ص 322]

40 ـــــــــــــــ ■ المدينة المخزنية: أحياء فاس الجديد

وقاعدة الملك بها مدينة فاس ثم مراكش وهي التي كانت ـ قديماً في زمان بني

عبد المومن ـ قاعدة الملك العظمى، فلما انتقل الملك إلى بني مرين وتحلى جيده بعقدهم الثمين، آبوا إلا يتخذوا لهم مدينة فاس دار ملك، فاستوطنوها وبنوا ـ معها ـ ثلاث مدن موازية لها على ضفة الوادي المعروف بوادي الجوهر غرباً بقبلة. فأولها: المدينة البيضاء، وتعرف بالبلد الجديد، بناها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، وهو أول من استقل بالملك بعد الموحدين، لأن أخاه يحيى أبا بكر ثار عليهم ومات، وما استقل له سلطان ولا استقر له من عز الملك أوطان. ثم مدينة حمص، ويعرف موضعها بالملاح، بناها ولده أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف والد سلطانها القائم الآن، بناها إلى جانب البيضاء. وربض النصارى، المتخذ لسكنى الطائفة الفرنجية المختصة بخدمة السلطان، ويطلق على هذه الثلاث المتخذات اسم فاس الجديدة، وهذه المتخذات كلها على ضفة الوادي الغربية على ترتيب ما نذكره.

فربض النصارى يقع قبالة فاس القديمة على بعد من ضفة الوادي من غير مسامته، ولا مدٌّ، والبيضاء وهي المسماة بفاس الجديدة، آخذة من شمالي ربض النصارى إلى ضفة النهر. ويقع أول عمارة فاس الجديدة قبالة أخر عمالة فاس العتيقة، وحمص راكبة على النهر بشمال على جانب فاس الجديدة آخذة إلى ربض النصارى عقد على الوادي قناطر وبنيت حمص على ضفته وهي فوق الجميع لأن الوادي منها ينحدر على ما نبينه وهو أن هذا النهر ينصب من الجنوب إلى الشمال ثم ينعطف على زاوية آخذاً من الغرب إلى الشرق كانه ينحدر من الغرب. وحمص على مجراه هناك، ثم يمر أخذا إلى الشرق على حالة فوق فاس الجديدة، ثم ينعطف عليها زاوية إلى الجنوب ثم ينعطف إلى الشرق جائزاً بها.

[العمري، مسالك، ص 114-115]

41 ■ كمين بقصبة مراكش(*)

لما استحكم الرشيد التدبير المتقدم ذكره ووصل مسعود المذكور فاوض أهل مشورته في كيفية القبض عليه وتم له القصد في ذلك بما أشار عليه، وعين الرشيد يوماً لذلك واعد بالقصبة برياض الحزب يحيى بن عبد الرحيم رضيع والده ومعه من الفتيان أعداد أهلوا لقتال مسعود بن حميدان وتجالده وجعل معهم أيضاً من العبيد

(*) الخليفة الرشيد الموحدي يدبر قتل مسعود بن حمدان رئيس قبائل الخلط.

الجنانين، أعداداً كثاراً في مواضع خفية عن الأبصار وعُين صاحب الشرطة أبو محمد ابن ماكسن للجلوس بأعوانه وحرسه بمربعة أهل الدار لاصلاح البابين اللذين عليهما أحدهما باب الرحبة الكبرى والثاني رحبة القباب واستعد لهذا كله بما اقتضته الحال وعرف الذين برياض الحزب بأن يماشي بعضهم العربـي إذا دخل مستدعي وحده على العادة للمثول بين يدي الخليفة الرشيد إلى موضع محدود يكتنفونه فيه عن يمين وشمال ويخرج الباقون من الجنانين وغيرهم من مواضع مكامنهم لاستيصاله والبطش بـه، فلما وقـر في النفوس ذلـك أشعر النـاس بقعـود أميـر المؤمنين وخـرج الاذن لمسعود بن حميدان بالدخول إلى السلطان فقام من موضع جلوسه ومعه جماعة من إخوانه أبطال رجال يسحبون الزهو، ويستعملون في مسيرهم معه الهزء واللهو، ولما أفضوا إلى باب الرياض المذكور حيث الترتيب المشار إليه نفذ له الأمر بأن لا يدخل معه سواه فتردد في ذلك متلوماً وقال إنه لا يدخل إلا مع أصحـابه ولا يتجـه له أن يفارقهم وتوقف هنالك عن الإجابة إلا إن كان مع عصبته فقيل له: إنك تعلم العادة في أن لا يدخل أحد لأول وهلة إلا بعد استيـذان ولا بد من سـلامهم بعد حلولـه بالمجلس واستيذانهم على ذلك بحكم العادة الجارية وبعد لأي أنفذ أصحابه مـع جانبـي الباب ودخل وحده وسد في ظهره فظهر له ابن عبد الرحيم في نفر قليل يمشون معه فلما كان متوسطاً بالمكان المحدود لإلقاء اليد فيه والفتك بـه بصر بجملة من الجنانين العبيد وغيرهم وأحس بالشر وبمسايرة ابن عبد الرحيم وغيره له على غير عادة ثم ألقى الملأ المذكورون أيديهم فيه وانخرط ابن عبد الرحيم في سيفه والعربـي في أيدي الناس وبيده سكين في ذراعه فراعه ما رأى، ورأى الموت قد فغر نحوه فاه، واستقبله من جهاته كلها رداه، فانتفض من أيديهم كما ينتفض العقاب، وظهر منه للذين اكتنفـوه مـا اضـطربـوا لـه أشـد الاضـطراب، فـأفلت من أيـديهم وضـربـه ابن عبد الرحيم بالسيف فلم يصبه إلا بذبابها ثم خر على وجهه صريعـاً دهشاً قـد استولى عليه الجزع وخامره إفراط الفزع وظهر من عدم الانتفاع به في ذلك المحل الشنيع وقلة الاصطناع ما لم يكن فيه مقدراً بحال ثم جذب العربـي سكينه وقصـد الباب الذي دخل منه ولو أراد قتل ابن عبد الرحيم لما منعه منه مانع ولكن حماه الأجل في بقائه واشتغل العربـي بالنجاة بنفسه والإفلات من الشرك الذي كان يتخبط في مهاويه. ولما استقبل الباب أعلن بصوته ليسمع من وراء الباب فكل من كان داخل الباب فر أمامه هيبة وفرقاً ففتح الباب وخرج إلى جماعته في زي المحارب الذاب عن

نفسه فأشهروا حديدهم وصاروا كرجل واحد وقد وسطوا بينهم شيخهم وقصدوا باب الرحبة الكبرى ليخرجوا من هنالك فاتبعهم في مدى هذه الرحبة كل من كان مختفياً بالرياض وهم يشتدون في أعقابهم فعاينهم كل من كان في الرحبة من القرابة والكتاب والخدمة والبوعديين فتحققوا أن العرب هم المطلوبون فانجحر كثير من الناس في بيوت هنالك ولم يبق إلا بعض البوعديين والذين في أعقاب العرب من فتيان وغيرهم ينادونهم بأخذهم من أمامهم فكان من البوعديين في ذلك عناء وانتهاض إلا أن العرب أشد قتالاً وبأساً وهم يشتدون نحو الباب الكبير الذي يفضي بالخارج إلى مربعة أهل الدار فألفوه مسدوداً في وجوههم فأعطوا بعضهم لقتال الذين يلونهم وبعضهم لكسر الأعمدة وفتح الباب واستصعب ذلك عليهم مدة لوثاقة الباب وأعمدته، وفي أثناء ذلك تسور البوعديون من جهة طريق باب القرابة على الجدرات واستعلوا على العرب وأتاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم والأمر يشتد والنفوس من إفلاتهم تضرم ناراً ثم تيسر للعرب فتح ذلك الباب على فخامته وقد نيل منهم النيل الشديد ودونه جملة أبواب لا قبل لهم بها ولا لغيرهم فأفضوا إلى مربعة أهل الدار وبها أبو محمد بن ماكسن بأعوانه على مقتضى الترتيب الأول ففر هو وأعوانه إلى جهة وليس لهم ورد ولا صدر، ولا عين ولا أثر، قد غلت أيديهم لإفراط الخور، وانجحر ابن ماكسن في تلك السقائف واستتر، وهو يشاهد الحملات ويعاين المنايا كيف تخترم النفوس وتختطف الأرواح فلما افضت العرب إلى الباب الثاني وهو الذي يفضي بالخارج منه إلى رحبة القباب ألفوه أيضاً مسدوداً في وجوههم وحالطهم في تلك المربعة من كان يقاتلهم من باب الرياض إلى هذا المكان والبوعديون وغيرهم قد تسوروا الجدران وهم يقاتلونهم من السقف بالحجارة فلما عاين العرب ما لا قبل لهم به وأيقنوا بالهلاك وأنه لا نجاة ولا فرار توسطوا شيخهم وصاروا يموتون دونه واحداً واحداً وكان هو آخرهم قتلاً، وعند ذلك آبت العقول وقد شردت، وعادت النفوس وقد كادت أن تزهق أو زهقت، والمنادي ينادي بقطع رأس العربي المذكور فقطع من فوره وحمل إلى أمير المؤمنين وهو بباب الحزب فشكر الله تعالى على ما تمم له من صنعه الجميل، بالشكر العريض الطويل، وفي أثناء انفلات العربي من الرياض حيث كان ابتداء أخذه فخيف من خروجه وإفلاته ولو أخره الأجل وأمهله وألهمه للخروج على باب القراقين لتوصل إلى مرغوبه ولكن قضاء الله تعالى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين فبعث أمير المؤمنين إلى كنيسة النصارى ليستصرخ من بها على قلتهم من تجارهم وضعفائهم وأولي الأعذار

منهم وكان المتوجه إليهم عنبر الذي أفضت إليه الحجابة بعد سنين.

قال الفقيه الكاتب أبو عبد الله التلمساني رحمه الله: ولقد كنت في أحد المساجد بالقشاشين للقراءة هنالك فدخل ناس أخبروا بالقضية على غير وجهها فخرج جميع من كان به فلقيت بسوق البرذعيين الفتى المذكور وهو على فرس حالي الركاب أشهب اللون من خيل الخليفة وليس على الفتى رداء ولا في قدميه إلا جلدها وكان المطر في ذلك اليوم وفيما قبله من الأيام، متوالياً شديداً لا يفتر والأزقة والسكك قد غصت بالناس وهو قد أطلق عنان فرسه ووراءه نحو ثلاثين من فرسان النصارى وتجارهم وهو يستحثهم والطين قد علاه حتى لا يتبين لون فرسه ولا لون ثيابه وقد تشوه بما تلوث به لا يلوي على أحد ثم قصد باب القراقين بمن معه فألفوا العربي وأصحابه في مصارعهم وأبرزهم القتل الى مضاجعهم. فعند ذلك أعطى الرشيد لجميع الناس بركة شاملة واسعة وأمر بإلقاء اليد فيمن كان بالبلد من الخلط وفي خيل الطائفة الهالكة ومتاعها وأثاثها وطيف بجثثها في المدينة فاستبشر الناس ووقع الإيناس، وقد كانت الأراجيف قد تنوعت في فنون من التشنيع والتبشيع فارتفع بذلك في الوقت الهرج، وأقبل الفتح وجاء الفرج وحسب الرشيد ذلك فتحاً عظيماً لا تحيط به الأفكار، ولا يأتي بمثله الليل والنهار، وغنم تفتخر به أيام دولته على الأعصار، وتسمو به حضرته تيها على جميع الأمصار، وحق لذلك أن يكون فإن الأمور قد كانت أخذت في الاختلال، وتعطلت المجابي وساءت الأحوال، فاقتحم بهذه العزمة ما كان في آخرها جميل العاقبة وإن كان قد ارتكب خطراً كبيراً من الأخطار، ولكنه اقتدى بقول البغدادي:

سأعطي النفس ما طلبت فأما   تهون فتحمل البلوى وإما

ولله تعالى القدرة وبه النصرة.

[ابن عذاري، بيان (موحدون)، ص 313-316]

42 ■ الاقامة الملكية الصيفية: تازة

تحتل هذه المدينة الدرجة الثالثة في المملكة من حيث المكانة والحضارة، ففيها جامع أكبر من جامع فاس، وثلاث مدارس، وحمامات وفنادق كثيرة، وأسواق منتظمة كأسواق فاس. وسكانها شجعان كرماء بالقياس إلى أهل فاس، من بينهم عدد

كثير من العلماء والأخيار والأثرياء، لأن أراضيها تنتج أحياناً ثلاثين ضعف ما يبذر فيها. وحول المدينة شعب تسقيه جداول ماء في غاية الجمال، وتكثر فيه بساتين تنتج كميات وافرة من ألذ الثمار، وكروم تعطي محصولاً طيباً من العنب الأبيض والأحمر والأسود، يعصر منه اليهود الذين لهم نحو خمسمائة دار في المدينة خمراً في عاية الجودة، يقال إنها أجود خمور هذه النواحي كلها. وما زالت تشاهد بتازا قصبة جميلة كبيرة يسكنها عامل المدينة.

ومن عادة ملوك فاس لهذا العهد أنهم يقطعون هذه المدينة لثاني أبنائهم. ومن الواجب ـ والحق يقال ـ أن تكون حاضرة المملكة لطيب هوائها شتاءً وصيفاً. وكان ملوك بني مرين يقيمون بها الصيف كله، لا لهذا السبب فحسب، ولكن أيضاً لحراسة البلاد وحمايتها من أعراب الصحراء الذين يأتون كل سنة ليمتاروا حاملين تمور سجلماسة قصد استبدالها بالحبوب. ويكسب أهل المدينة ربحاً وافراً من الحبوب التي يبيعونها للأعراب بثمن مرتفع.

وباختصار، فإن تازا محظوظة جداً، سواء فيما يخص المدينة ذاتها أو السكان. وليس فيها شيء مزعج غير الوحل الذي تمتلىء به شتاء.

[الوزان، وصف، ج 1، ص 354-355]

43 ■ قواعد المغرب

وقواعد الملك بهذه المملكة ثلاثة: وهي فاس، وهي قاعدة الملك ثم مراكش، وهي قاعدة الملك الثانية. ثم تلمسان، وهي قاعدة الملك الثالثة، فأما سبتة فإنا وإن كنا ذكرناها مملكة وصدرنا بها في هذا الفصل بالممالك، فإنها ليست لملوك بني مرين بقاعدة ولا ينظر إليها عندهم بعين الاحتفال. وأما كوننا ذكرنا هنا مراكش ولم نذكرها في صدر هذا الفصل في الممالك فلأنها وفاس ذات مملكة واحدة، وإنما التقدمة (كذا) اليوم لفاس، فلم يبق لذكرها معنى. وإنما ذكرناها هاهنا فلأنها ملحوظة عند ملوكها، بعدونها بعد فاس. وأما تلمسان فمملكة تمادى الأمد عليها وهي مستقلة بنفسها ولقد استضافها هذا السلطان إليه فصارت له قاعدة ثالثة. وأما المدن الكبار بهذه المملكة فهي اثنتان وأربعون مدينة، القائم فيها هذا السلطان عن أبائه ستة وعشرون مدينة وهي: فاس، ومراكش، وأغمات، وآسفي، وآنفا، وآزمور، وتيط،

وسلا، وزَيلا، والعرائش، وطنجة، والقصر الصغير، وسبتة، وبادس، وتيجيساس، وغصاصة، وهي المسماة بالكدية البيضاء، وقصر ابن عبد الكريم، وتازا، وصا، وسجلماسة، وتطاوين، ومليلة، والمزمة، وتازوطة، ومكناسة. والمستجد لهذا السلطان عند فتحه بسيفه لمدينة تلمسان وقتل ملكها أبي تاشفين عبد الرحمن بن أبي حمو العبد الوادي فهو تسعة عشر مدينة وهي: تلمسان، ووجدة، ومديونة، وندرومة، وهنين، ووهران، وتيمزغران، وبرشك، وشرشال، وتونت، ومستغانم، وتنس، والجزائر، والقصبات، وماذونة، وتاحجممت، ومليانة، والمدية، وأما صفروي، وهي مما ورثه عن أبيه فهي قرية كبيرة لا مدينة وكذا الطحا، وتيمزوغت، مما فتحه فمن عدها في المدن جعل جملة العدد خمسة وأربعين مدينة وإلا فالصحيح مابيناه. هذا ما تملكه هذا السلطان مما على جنوب البحر الشامي من أول مخرج بحر الزقاق المحيط إلى آخر عماله جزائر بني مزغانة مع طول البحر وما يليه في الجنوب إلى الصحراء الكبيرة وله بالأندلس: الجزيرة الخضراء، ورندة، ومربِّلة، وما فتحه بجيوشه المجهزة بها فهو بلد طريف، وجبل الفتح، فتكون جملة المدن الكبار المنتظمة في مملكته ثمانية وأربعين مدينة بما لها من المعاملات والرساتيق والقرى والضياع والقلاع والحصون والبوادي، كل هذا بيد سلطانها القائم الآن يتصرف تصرف الاستقلال فيه. وبقية الأندلس، لولا جيوشه مع الله تعالى، لما بقيت وقد كان على ملكها للفرنج في كل سنة أربعون ألف دينار، فمذ جال بالأندلس خيله قطع تلك القطيعة وأنعش بها رمق الإسلام.

[العمري، مسالك، ص 120-121]

44 ـــــــــــــــــــ ■ تارودانت: القاعدة المحلية(*)

وفي الثالث والعشرين منه [شوال 665/1267] نزلت المحلة بمقربة من تارودانت وركب الواثق بالله إلى حصن تارودانت الذي كان قاعدة البلاد السوسية ودار الولاة ومستقر أمرهم ومأوى كل غريب من التجار وغيرهم، ولما كان انتزاء الشقي ابن يدر إلى الفتنة لم يكن أهم أموره إلا تخريب هذا الحصن لأنه كان محلاً لاستقرار الأحناد ومنه كان استيلاء الولاة على تلك البلاد، فلما عصفت ريح ابن يدر في نفاقه وشقاقه

(*) يكشف النص عن اهتمام الخليفة الموحدي المُرتَضى بالتشييد والبناء في وقت كان المرينيون قد استولوا فيه على جل مناطق المغرب.

لم يكن أمله إلا هدم هذا الحصن الذي اتخذه خلفاء الموحدين معقلاً ومحلاً لولاتهم ومنزلاً، فأباد آثاره وزلزل قواعده وأزال أسواره واستأصل جميعه وهدم دياره ولم يتعرض إلى شيء مما جاوره من الديار والأملاك التي بخارجه فإنها كانت مساكن الرعية وكل من كان بهذه البلاد يكابره ويعانده لم يبق له اسماً ولا لدياره وأملاكه رسماً، ولقد بنى هذا الحصن مرات ووجه إليه الصناع من الحضرة وعملت عليه أبواب الحديد التي كانت بباب السراجين من داخل مراكش فمتى خلا من الأجناد انتهز ابن يدر الفرصة إليه وحشد القبائل عليه حتى صار طللاً دارساً فطاف به الواثق بالله وبجميع جهاته كلها وساحاته ووقع التفاوض في إعادته والشروع في تجديد رسمه وإقامته ولو ساعده الزمان لوقع التدبير في هذا الشأن. وفي السابع والعشرين من شوال بعث الواثق بالله إلى مراكش عما يحتاج إليه من آلة الحرب الذي لم يزل عزمه عليه قائماً، وكان عزم من تقدمه عنه نائماً.

[ابن عذاري، بيان (موحدون) ص 459-460]

45 ـــــــ ■ الأطر المخزنية: عمال يعقوب بن عبد الحق المريني

محمد بن علي بمراكش وأعمالها وجميع بلاد السوس، وعلى أغمات وتينمل وجبالها الفقيه أبو علي الملياني، وعلى مدينة سلا وأحوازها ومراسيها علي بن عمران البرنياني المعروف بابن عيلة، وعلى مدينة مكناسة وأحوازها علي بن الأزرق، وعلى مدينة فاس أبو عبد الله الحدودي، وعلى رباط تازة وجميع أحوازها أبو سالم بن الأشقر التسولي، وعلى مدينة سجلماسة عبد الرحمن بن مردنيس، وعلى بلاد درعة وأحوازها يوسف بن علي اليباني، وعلى بلاد الأندلس علي بن يوسف بن يزجاسن.

[ابن ابي زرع (؟)، ذخيرة، ص 87]

III ـ ترحال الملك

46 ـــــــ ■ حركة عبد المومن الموحدي إلى بجاية

فالعجب العجيب لما أراد الخليفة عبد المؤمن غزو بني حماد استشر ذلك مع

خاصته ووزرائه، منهم أبو إبراهيم وأبو حفص وغيرهما، وأظهر لهم ما في طي نفسه من ذلك، فاشتغل باحتشاد قبائل الموحدين من جبالهم، وخرج من مراكش في أواخر سنة ست الفارطة [546/1151-1152] مظهراً للناس غزو الروم بجزيرة الأندلس. فلما وصل إلى سلا، أقام بها شهرين يردد الرأي في نفسه، ثم توصل منها إلى سبتة مظهراً للناس الإجازة إلى الأندلس. واستدعى من له من العمال بإشبيلية وأنظارها، فوصلوا إليه، واستوضح مسائلهم. ثم رحل منها راجعاً مظهراً الانصراف إلى مراكش، وأشاع الذكر بذلك للناس، ومقصده في نفسه ونفس خاصته بجاية وبلاد إفريقية. وكان حين حركته هذه من مراكش خاطب عامله على تلمسان وهو ابن واندين يأمره بمنع التجار المسافرين من التصرف والتحرك إلى إفريقية براً وبحراً لأجل الإخبار، بانتقال المسافرين والتجار. فامتثل ذلك والتزم الأمر في فعله هناك. ولما فصل من طنجة أخذ على قصر عبد الكريم على طريق جعل فيه فاساً على يمينه، وأخذ قاطعاً إلى الشرق، ونادى منادي المحلة عن أمره: أيها الناس ـ من تكلم منكم بكلمة معناها أين هو المشي هل إلى الشرق أو إلى الغرب أو القبلة فجزاؤه السيف... ثم تحرك إلى جهة بجاية مستعجلاً في الرحيل، على أول غرضه من التأميل، فما شعر ابن حماد صاحب بجاية، المعروف بالعزيز، حتى وصل عامله بالجزائر بعد ما خرج منها ودخلها الموحدون، فصبح بجاية في إثر ذلك. وعلم بوصوله أبو عبد الله بن ميمون المعروف بابن حمدون. وقد كان بينه وبين أبي محمد عبد المؤمن عهد على ذلك وموافقة، ففتح له باب مدينة بجاية، وقد كان ابن حماد حين وصله مستنابه من الجزائر نظر في قطعة من قطع البحر وركبها لعبوره، ورآها مفزعة لذعره، وأضاف إلى القطعة المذكورة قطعتين اثنتين ملأهما بجميع ذخائره من الجوهر والياقوت والذهب الصامت والآنية والثياب وغير ذلك، وأدخل فيها عياله وقذفت في حينه بذلك إلى... وكان فيها أخوه شقيقه، فأحس منه غدره، فرحل عنه في البحر، ووصل إلى مقربة من قسنطينة، وأقام بها حتى نازله الموحدون وحاصروه بها مدة، فرغب في الأمان...

[ابن عذاري، بيان (موحدون)، ص 45-46]

47 ■ تنقل يعقوب المريني

في غرة محرم منها [671/1272] دخل أمير المسلمين يعقوب فاس قافلاً من غزوة تلمسان، فأقام بها إلى اليوم الحادي عشر من صفر من السنة المذكورة، فتوفي

بها ولده الأمير الأجل أبو مالك عبد الواحد رحمه الله يوم الأربعاء، وهو ابن اثنتي وثلاثين سنة، فتأسف والده عليه لفقده ثم تلقّا بالرضا والتفويض ما حكم الله وأمر في عبده ورجع إلى الصبر الجميل، وعلم أن الكل سالك ذالك السبيل.

فلما انقضا شهر صفر الذي توفي فيه ولده أبو مالك ارتحل أمير المسلمين إلى حضرة مراكش، فوصل إلى رباط الفتح في يوم الثاني عشر من ربيع الأول، فأخذ البيعة من بني مرين بولاية العهد لولده الأمير أبي يعقوب يوسف، ثم سار إلى حضرة مراكش، فدخلها في نصف ربيع الآخر منها، فقعد بها أياماً ثم ارتحل إلى بلاد السوس فهدنها، وبعث وزيره فتح الله بن عمر السدراتي في جيش من ثلاثة آلاف فارس إلى عرب المعقل فغزاهم وقتل منهم خلقاً كثيراً بتيدسي، وذالك في شوال من السنة المذكورة.

وفي شهر شعبان منها خرج أمير المسلمين يعقوب من بلاد السوس فدخل مراكش وأقام بها حتى أهلَّ هلال رمضان فارتحل عنها إلى رباط الفتح فعيد عيد الفطر، وارتحل إلى مدينة طنجة فنزل عليها وحاصرها وشرع في قتالها، ونزل عليها في أول من ذي حجة من سنة إحدا وسبعين وستمئة المذكورة وأقام عليها محاصراً لها ملازماً قتالها غدواً ورواحاً مدة ثلاثة أشهر وفتحها.

[ابن أبي زرع (*)، ذخيرة، ص 135-36]

48 ■ تنقل يوسف المريني

ثم ارتحل السلطان في رمضان من سنته [685/1286] إلى مراكش لتمهيد أنحائها، وتثقيف أطرافها، واحتل بها في شوال، واعتمل النظر في مصالحها. ونزع خلال ذلك طلحة بن يحيى بن محلى البطوي إلى بني حسان من المعقل، وخرج على السلطان ودعا لنفسه. وعقد السلطان لمنصور ابن أخيه أبي مالك على العساكر، وعهد له بولاية السوس، وسرحه لاستنزال الخوارج، ومحو آثار الفساد وارتاب بمكان أخيه عمر؛ فغربه إلى غرناطة؛ فقتله أولاد أبي العلاء يوم وصوله إليها؛ فسار الأمير منصور في الجيوش والكتائب؛ وغزا عرب المعقل واثخن فيهم وقتل طلحة بن محلى في بعض حروبهم لثلاث عشرة من جمادى سنة ست وثمانين وبعث برأسه إلى سدة السلطان؛ فعلق بتازى. ثم نهض السلطان في رمضان لغز

المعقل بصحراء درعة بما أضروا العمران وأفسدوا السابلة. وسار إليهم في اثني عشر ألفاً من الفرسان. ومر على بلاد هسكورة معترضاً جبل درن. وأدركهم بالقفر نواجع؛ فاثخن فيهم بالقتل والسبي. واستكثر من رؤوسهم؛ فعلقت بشرفات مراكش وسجلماسة وفاس. وعاد من غزوه إلى مراكش آخر شوال؛ فنكب محمد بن علي بن محلى عاملها القديم الولاية عليها من لدن غلب الموحدين؛ لما وقع من الارتياب بأولاد محلى بما أتاه كبيره طلحة؛ فنكب غرة المحرم من سنة سبع. وهلك في محبسه لشهر صفر بعده. وهلك على أثر ذلك المزوار قاسم بن عبُّو. وعقد السلطان على مراكش وأعمالها لمحمد بن عطو الجاناتي من موالي دولتهم ولاء الحلف. وترك معه ابنه أبا عامر. ثم ارتحل إلى حضرة فاس؛ فاحتل بها منتصف ربيع، ووافته بها عرسه ابنة موسى بن رحُّو بن عبد الله بن عبد الحق من غرناطة في وفد من وزراء ابن الأحمر وأهل دولته؛ فاعرس بها وكان بعث إلى أبيها من قبل في الاصهار بها. ووافت معها رسل ابن الأحمر يسألون التجافي عن وادي آش؛ فاسعفهم بها كما نذكر إن شاء الله تعالى.

[ابن خلدون، عبر، ج 13، ص 438-439]

49 ■ الافراك

وافراق السعيد كالبلد الواسع الأقطار، القائم الأسوار، البديع الاختطاط، الشريف الاستنباط، المحكم الارتباط. وهو في وضعه مستدير الساحة، بدري المساحة. قد صنع من شقاق الكتان الموضونة، وفضلاته الفاضلة المصونة. وضوعفت طاقاته، وحذيت حذو القذة بالقذة مسافاته.

وأظهر النصاحيون في خياطته النصائح، وظاهر المراوح منهم المغادي والمعادي المراوح. وأعملوا فيه نبات الوخز غائصة غوص الأذهان، أخذ من الألسنة الفاتقة رتوق البيان. ترسل خيوطها أسرع من البريق وتغادر الأنامل وكأنها أفراس رهان تبارت في السبق. . . عارفة كالأصولي بالجرح إلا أنها جاهلة بالفرق. ضيقة العيون كالأتراك، ناحلة الجسوم كالعابدين النساك، إلا أنها تبين لها الخيط الأبيض لا تدين بالإمساك. فالتأمت أجزاؤه أحسن الالتئام، والتحمت على وفق الإبداع أجمل الالتحام. وتجانست أنحاؤه وتطابقت، وتناسبت ميامنه ومياسره وتوافقت.

وجمع بشرائطه شرائط الكمال، واختار من لونه وهو البياض طراز الجمال. وصنعت له عمد مثقفة كالقداح، موشاة كأثواب الخود الرداح. بأسافلها زجاج حديد كبير الأجرام، تشق الأرض شق الغرام قلب المستهام. وتقر في الترب كأنها جذور النخل الباسقة، وعروق الأزرق السامية السامقة.

فتقف تلك العمد متناسقة الصفوف، جائبة لمعنى في غيرها وزهى الملك منها بصحيفة دل على شرف ما فيها عنوانها. ذات الأطناب التي تمتد امتداد أشعة الشمس، وتحل أوتادها من الأرض محل النفس من الجسم والسر من النفس. قائمة لفارس كايوان كسرى، مزدانة بأنواره التي هي أفخر من أنوار البدر وأسرى.

ويتصل بها البيت الأعظم الذي كاد يبلغ الفرقدين، وتصير ذات العماد منه إلى ذي العمادين. بديع المحاسن جميل المسافر، بهي المناظر، زكي المخابر. وسيع مقام الاستضراب، ممتد شأو الاستنخاب.

وتتصل به القبة التي هي ثالثة التعزيز، وسمة شرف التمييز. ذات الحسن الفائق. والجمال الرائق. والشكل البديع، والاستنباط المرضي التأصيل والتفريع.

وبغربي هذه المساكن خيمة الشعر التي أعجز وصفها الشعراء، وأنست بألوانها وبدائع صنعتها وشيء صنعاء. قريبة التداني، منيفة على أوثق المباني، مستطيلة الشكل كالفجر الأول، مستطيرة الذكر المنزهة عن التداني. وخلال الاقيال (العياهلة) الذين فازوا من دنياهم بنيل الأماني.

وفي افراق السعيد من الأخبية والبيوت ما يشابه الكواكب في جمالها وازدحامها، ويشابه العقود النفائس في حسنها وانتظامها. كل ذلك مما نشأ في مظاهر الإبداع والاتقان، وصنع في أسعد الأوقات والأزمان. واستفرغ في تنجيده الوسع، ونعم برؤيته البصر وبوصفه السمع.

وأمام باب أفراق القبلي قبة الجلوس وهي قبة ليست بالكبيرة إلا أنها في غاية الاحتفال، مشتملة بالمحاسن أحسن الاشتمال. وفيها مرتبة الملك العزيز التمكين، أحسن من طاقات السوسان والنسرين. وهي مستندة إلى ألواح تتصل بلطائف الصنعة، وتتلاءم أجزاؤها فتصير سوراً ظاهر المنعة. وقد أودعها الدهانون عجائب أشغالهم. وأظهروا بالفعل ما كان بالقوة في خيالهم حتى شمل الاتقان جميع ما تقع

عليه الأبصار، وتتشوف إليه الأفكار، واستوضحت الحكم التي استتبعت بها الأسرار.

ويستقدم قبة الجلوس مجال يقيد الألحاظ، وتقف على ذكر محاسنه الألفاظ. وبه طريق الخليفة إذا خرج من مضاربه إلى حياة الساقة، التي قامت قيام الجبل الرفيع الذروة، والحديقة الملتفة بأعلى الربوة. مرسلة أطنابهارإرسال شابيب الأمطار، رافعة عمدها الثابت الذي كاد كالحروف. فتنتشر المرواقات على أعطافها، وتتكاشف بمواطن استشرافها. حتى تحيط بالبقعة المتخيرة لنزول خير الملوك، والمنزل المطهر الذي يحوز بسلوك الإمام عليه بركة أهل السلوك.

سور عظيم يعارض مهاب الرياح، ويسمو سمو الحباب على الراح. ويزاحم الجو بمناكبه، ويكاتب البروق المومضة بكواثبه. وله شرفات من الرقاع الزرق تباهي ألوان السحاب، والعيون المناسبة في حجر الروض أحسن الانتساب.

وله بابان أحدهما جوفي وهو المسمى بباب الصرف، وهو مفتوح لبيت علا سمكه علو السماك، وأشرف على المحلة إشراف البدر المنور الأحلاك. وأعرب عن الفخامة الثابتة الدلائل، والجلالة الرفيعة المنازل، والضخامة التي أنافت على الملوك الأوائل. والباب الثاني بقبليه أمام البرج الذي كاد يبلغ عنان السماء، ويزحم النجوم المختومة كؤوسها بمسك الظلماء. وهو مربع الشكل، محتفل العلو والسفل، دواخل حيطانه أبدع من الروض غب العهاد، وأحسن من تحليات الخريدة ولا غرو فهي منوطة بالعماد.

فسيح مجال الإطناب، عالي مسادل الجلباب. شديد الأركان، يفوق شامخ البنيان. سام على الهضاب، دافع في صدور السحاب. قابض بأعنة الرياح الهوج، مشرف كغوارب القلائص العوج. قد لبس أثواب الهيئة وجر برودها، وصدع بأنوار العز وأبدى صعودها، وزهى بجامور تحسد الثريا اجتماع تفافيحه، ويود الشفق لو كان بعض ذوائبه المرسلة إلا هز ريحه (.).

وفي جوفه حائط من الخشب يروق الابصار بريقه، ويفوق الوشي اليماني تنميقه. حسن المساق، جميل الاستنساق. تجتمع أجزاؤه بعد الافتراق، وتعود بعد الانخرام للانتظام والاتساق.

وفيه جملة أبواب محكمة الصنائع، مفيضة بقداح البدائع، ءاخذة بأزمة العيون

إلى حسنها الرائع، قائمة على قلب القلوب بجمالها الموفور البضائع. وكلها موصد مغلق إلا الباب الذي بجهة الشرق فإنه معد لدخول الخليفة، ومواطىء أقدامه الشريفة، مخصوص بالولوج إلى المواقف العالية المنيفة، والحواضر التي احتوت على أسرار الحسن اللطيفة. ومن هنالك يشرع إلى باب أفراق الثاني الذي به مساكن الخلافة ومضاربها، ومسارح ربات خدوره ومساربها.

ويوالي باب أفراق الثاني القبة العظمى التي ظهرت كقوس قزح ألوانها، يلحق بالكوكب السيار.

قد أحكمت بدواخله الحرائم البديعة الاختراع، والتوارق العجيبة التي استمتع الحسن بها أعظم الاستمتاع.

وبها أيضاً مرتبة الملك بيضاء عالية كالصبح، مكتنفة في كل الأوقات بالنصر والفتح. يحلها البدر فتجلي الأحلاك لكن بانقسامه، ويستقر بأعلاها البحر فيرسل الدر لكن من كلامه، وتروي عن سهل لكن من خلائقه وعن كثير لكن من أنعامه، «وتشاهد منه ثالث العمرين لكن عند تنفيذ أحكامه» ونصر الدين بالماضيين لسانه وحسامه.

وبمقربة من قبة الجلوس بالجهة الشرقية يضرب الجامع الذي امتدت له الأسباب، وسر بالدخول في المحراب منه المحراب. وبه استقرار الحزابين والمؤذنين من مرتبين لقراءة القرءان، وحفظ أوقات الصلوات بالأذان، وإقامة شعائر الإسلام والإيمان.

[النميري، فيض، ص 64-67]

50 ■ المحلة

وفي يوم السبت التالي له [684/1285] أمر أمير المسلمين ولده الأمير محمد (أبا معرف) أن يركب في جيش المجاهدين فيقاتل شريشاً ويلازمها بالحروب في كل يوم، فسار إليها وقاتلها النهار كله إلى الليل، ولم يزل الأمير محمد يتردد بجيوش المسلمين إلى شريش في كل يوم يقاتلها من أول النهار إلى الليل فكان يقتل كل يوم منهم خلقاً كثيراً ويسبي النساء والأولاد، وسبب لزومه لقتالها والوقوف عليها ليمنعهم عن الخروج إلى مرافقهم وليتأمن المسلمون الذين انتشروا في الأرض لحصاد الزرع ودرسه، فكان الناس في هاذه

الأيام كلها يخرجون من المحلة بالدواب فيحصدون الزرع ويدرسونه ويحملونه إلى المحلة، فكثرت الخيرات بها وتوفرت الأرزاق، فكان القمح والشعير والفواكه والإدام لا يبـاع ولا يشترا والمجاهدون فيها في رغد من العيش، فصارت المحلة بمنزلة قواعد المدن، اجتمع فيها جميع أصناف الصنائع والتجارة، فأخبر من تفقد أسواقها من أهل البحث أنه رأا فيها أصناف الصناع، كل قد تلبس بصناعته واحترف بحرفته ما عدا الحياكة خاصة، وأما سوق الغزل والكتان فقد كانا بها إذ أخذ سوق المحلة السهل والوعر إذا غاب عنك رفيقك أو من تعرفه لا تكاد تلقاه إلا بعد اليومين والثلاثة لكثرة الخلق.

[ابن أبـي زرع، **قرطاس**، ص 351-352]

الفصل الثالث

الانتفاضة الحضرية

فلما تواصلت مصائب العرب وهسكورة على مراكش وصاروا لا يخرج منهم جيش إلا هزموه وغنموه حتى أفنوا كثيراً من رجالها اجتمع أهل الرأي فيها على قتل ابن يوجان إذ كان في اعتقادهم أنه يغري العدو الظاهر بإهلاكهم، فاطلع ابن يوجان وابنه الأكبر أبو محمد على ذلك، فاختفى هو في غرفة لبعض أتباعه في جهة ريثما يخفى عن العيون، ووقع ابنه في درب من دروب هرغة، فاختفى في مسجد هناك، ووقع النهب في جميع ما كان لهما، وصار الرمّال والسائس والدخانيّ وأمثالهم يضع كل واحد منهم يده في من وقع له من الحرم وغير ذلك، ولا أحد ينكر، ولا يقدر من ينكر أن يلفظ بذلك، لأنهم كانوا عند العامة مباطنين لأعدائهم، ووقع البحث على الشيخ ابن يوجان وعلى ولده، فأما الشيخ فانتهى إليه جزار فصاح بصاحب له استعان به على جرّه فجرّاه وذبحه الجزار وغدا برأسه إلى أبي زيد ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد إذ هو ابن عمه، لأن أبا زيد المقتول هو عبد الرحمن بن موسى بن يوجان بن يحيى الهنتاتي وأبو زيد الواصل بالعسكر هو عبد الرحمن بن عبد الواحد بن أبي حفص بن يحيى، فيحيى يجمع بين بن أبي حفص وبين يوجان، وجعل الله تعالى بين هذين البيتين ما جعل بين بني هاشم وبني أميّة، وأما ابنه الوزير أبو محمد فنمي خبره إلى أولاد أبي زكريا بن الشهيد فوصلوا إليه وأخرجوه وضربوا عنقه على باب المسجد، وكان قتلهما في سنة خمس وعشرين وستمائة.

[الحميري، روض، ص 175]

(*) كان عبد الرحمان بن يوجان الهنتاتي من أشهر وزراء الموحدين، واستمر في منصبه من عهد يعقوب المنصور إلى عهد العادل، حيث لعب دوراً هاماً خلال أحداث التنافس حول الخلافة.

ومنهم الفقيه العالم العلامة الأشهر، السراج المنير الأزهر، الأعرف الأظهر، الأزكى الأطهر، **إسحاق بن مطهر**، وهو من قبيل بني ورياغل، ومن فخد بني يملك، ويعرف في وقته بالأعرج، لأنه خرج عليه اللصوص ليلاً في مجسد من بلاد سدراتة، حين قراءته فيها، فأصيبت رجله فعرج منها عرجاً شديداً، وكان شيخه أبو محمد الهسكوري، كان الفقيه إسحاق أوحد زمانه في الفقه والسخاء، واحفظ خلق الله لأسباب الإخاء، ما لاَنَ جانبه قط لسلطان، ولا تعلق جاهه منه باستبطان، ولا عدم منه ضعيف موالاة إشفاق، ولا شاهد منه قوي وجه نفاق، وكان قليل المنة، شديد المنة، وقد قيل: إن التصوف منة ومنة.

وقع بينه وبين معاصريه من فقهاء فاس منازعة في مسألة فقهية، كان الصواب فيها قائده، والإصابة رائده، فتحزب طلبة البربر في ذلك فرقاً ورشحوا للمعاندة عرقاً، فشغب على الطلبة عند السلطان، وقيل له: إن طلبة البربر يريدون المخالفة على السلطان، لكثرة عنادهم، واستطالة ألسنتهم، فأمر السلطان يعقوب بن عبد الحق بنفي الفقهاء، وفيهم إسحاق، وأبو يعقوب المحساني، وأبو عبد الله بن عمران، فتناول الشرطي إخراجهم، فأرى الله فيهم البرهان، وكان الذي تولى كبره منهم صاحب الشرطة، ويعرف بأبي العطور، فصار يأكل من لحم اجنابه حتى مات، فبلغ الخبر إلى السلطان فأمر بردهم، وصار السلطان بعد ذلك يعظمهم، ومعظماً للفقيه إسحاق، ومعترفاً بفضله، يريد لقاءه فيتمنع منه.

قال المؤلف: لما بنى الأمير يعقوب المدرسة في قبلة جامع القرويين من رحبة البقر، وأراد دخولها، صلى في جامع القرويين يوم جمعة، وكان الفقيه إسحاق يصلي في الجانب الغربي من الصف الأول، فلقيه الأمير يعقوب بعد صلاة الجمعة، فقام إليه وعانقه، ثم قعد معه وقال: أسألك عن ثلاث مسائل، فقال له: لا فائدة لك في السؤال، فإنك لا تعمل بالجواب، فألح عليه وأبى، وقال له عد عن هذا فما أجيبك بشيء، فقال له: ادعُ لنا، فدعا له وانصرف.

[البادسي، مقصد، ص 110-111]

وفي هذه السنة وهي سنة سبع وأربعين [647/1249] قام بسبتة الفقيه العالم
أبو القاسم بن الفقيه العالم
أبي القاسم العزفي رحمه الله تعالى
ليلة سبع وعشرين لرمضان

وكان المعين له في ذلك والمدبر له في الأمر هنالك القائد للبحر حينئذٍ وهو أبو العباس الرنداحي فقد كان بينهما مودة عظيمة، وصحبة حديثة لا قديمة، وذلك من حين ولي قيادة البحر، وكان له فيه على الغزاة النهي والأمر، وذلك أنه لما خالفت سبتة على السعيد، ووصلها من تونس ابن أبي خالد وابن الشهيد فاستوطنا قصبتها وأضر ابن أبي خالد بأهلها وكان بينه وبين القائد المذكور تغير في بعض الأمور، وكان بسبتة قائد الفحص شقاف المشهور، الذي كان السبب مع قضاء الله تعالى في دخول النصارى مدينة إشبيلية ووصل منها إلى سبتة مع جملة من الأجناد والقواد فلما توفي الأمير أبو زكرياء في السنة الفارطة وتوفي السعيد وضاق أهل سبتة غاية التضييق من جور ابن أبي خالد وتغافل ابن الشهيد، اجتمع القائد الرنداحي مع الفقيه المعظم أبي القاسم العزفي فحرضه على القيام بأمر بلده وأن يعينه على ذلك بعده وعدده والتزم له أن يقوم بالأمر حتى يخلصه فوافقه الفقيه على ذلك وأمره بإنجازه في الليلة المذكورة. فاستعمل القائد المذكور طعاماً في داره وعرضه على بعض عمائر الأجفان من الرؤساء والقواد والرماة والغزاة واستدعاهم لمنزله كأنها وليمة مشهورة ولا علم أحد منهم بسره ولا كيفية أمره. فاشتغل الناس عنده بالسماع والشطح في الدار، وهو مع ذلك لا يستقر له معهم قرار، وهو قد بعث زعماء رجاله بالليل بعدما كشف لهم عن الحال وأمرهم أن يسوقوا له رأس شقاف وفلان وفلان فأول ابتدائهم بشقاف المذكور فإنهم صاحوا في داره وقالوا له: «الوالي بعثنا إليك يريد أن يجتمع بك في بعض الأمور». فلما خرج إليهم قطعوا رأسه وقتلوا كل من أمرهم بقتله ورجعوا إليه آخر الليل فأعلموه بأنهم امتثلوا كل ما أمرهم به. فاجتمع مع الفقيه المعظم وعرفه بكل ما كان من الأمر وما فعله من قتل القواد والأجناد والأندلسيين وغيرهم وأنه أمر رجاله بقتلهم فأخرجوهم بالحيلة من ديارهم وقتلوهم فلما أعلمه بذلك تركه قاعداً في اسطوانه بشمعة أمامه مع بعض إخوانه وخدامه وهو يتطاير خوفاً مما يتوقع من عاقبة الأمر.

ورجع القائد إلى داره والعمائر بها يشطحون ويفرحون، ولا يعرفون ما وقع وهـ
لا يشعرون. فخرج بهم من داره وتقدم إلى القصبة بعدما ضرب النفير، فاجتمع م
عمائر الأجفان الكبير والصغير، وشاع الخبر عند أهل البلد؛ فخرج السوقة والتجـ
واجتمعوا أجمعين على القائد والفقيه بأسطوانه مرتقب لما يتزايد من الأخبار
ومتخوف مما يتوقع من تصرف الأقدار، والرجال يسيرون إليه مرة بعد أخرى، وأهـ
سبتة مجتمعون على قائدهم يطلبون رأس ابن أبي خالد دون غيره لأنه كان أضر بهـ
بظلمه وجوره، وابن الشهيد معه خائفاً أيضاً من حاله وعاقبة أمره، إلى أن صعد الرجل (كذ
على سور القصبة وظفروا بابن أبي خالد فقتلوه وقطعوا رأسه وعلقوه على السور
وأخرج ابن الشهيد المذكور ونفي إلى الأندلس في زورق إلى أن وصل بعد ذلك إلى
تونس بشهور، واستبد أبو القاسم العزفي بملك سبتة وبقي بها مسروراً، معظمـ
مبروراً، ولم يزل أهل بلده يعظمونه بغاية الإعظام، والتوقير لجانبه والاحترام، فهو مـ
جلة الفقهاء الأعلام، ومن مآثره العظام، قيامه بمولد النبي عليه السلام من هذ
العام، فيطعم فيه أهل بلده ألوان الطعام، ويؤثر على أولادهم ليلة يوم المولد السعيـ
بالصرف الجديد من جملة الإحسان عليهم والإنعام، وذلك لأجل ما يطلقو
المحاضر والصنائع والحوانيت، يمشون في الأزقة يصلون على النبي عليه السلام وفي
طول اليوم المذكور يسمع المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي عليه السلام
بالفرح والسرور والإطعام للخاص والعام، جار ذلك على الدوام، في كل عام مـ
الأعوام، وتوفي رحمه الله عام سبعة وسبعين (. . .) فكانت مدته نحو ثلاثين سنة على
ما يأتي ذِكرُه في صلة هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

[ابن عذاري، بيان (موحدون)، ص 397-399]

54 ■ ثورة فاس ونهاية الحكم المريني

وفيه في حادي عشرة [شوال 869/1465]، ورد الخبر من جهة مدينة فاس
لتلمسان بقيام أهل فاس من السواد الأعظم على اليهود بفاس وقتلهم عن آخرهم
وإنه لم يخلص منهم إلا خمسة ذكور وست إناث أو أقل من ذلك، وهم الذين اختفـ
بحيث لم يطّلع عليهم. وكانت كائنة عظيمة ومقتلة كبيرة آل الأمر فيها إلى ذبـ
عبد الحق المريني سلطان فاس وصاحب المغرب الأقصى، مع جلالة قدره وعظ
شأنه ومملكته. وولي عوضه رجل من شرفاء فاس يقال له الشريف محمد بن عمران

وكان من خبر هذه الكائنة أن عبد الحق هذا أقام على ملك فاس مدة تزيد على الثلثين سنة، وكان مغلوباً فيها مع بني وطّاس الوزراء. وكان ذلك دأبهم ببلاد المغرب بفاس، وجرت العادة أن يكون الغلبة بها والأمر للوزراء، وهم ملاّك العباد والبلاد، وإليهم الأمر والنهي، ولا يصدر شيء بهذه المملكة إلا عن رأيهم وإنما السلطان من بني مَرين كالآلة معهم، مثل الخلفاء بمصر الآن مع السلاطين من الترك، بل أولائك أقوى شوكة من الخلفاء ههنا. فلا زال عبد الحق هذا يحتال بكل حيلة، ويتوسل بكل وسيلة، حتى أباد بآخره الكثير منهم وقتل الوزير يحيى بن يحيى الماضي ذكره في محله، وشيء من ذكر عبد الحق في تراجم سنة ثلث وستين. وذبح معه ولد أبي حسون الوزير قبله بن أبي حسون أيضاً، علي بن يوسف بن زيان بن عمر الوطاسي. وتشتت شمل بني وطاس بسبب ذلك، وغلب عبد الحق على الأمر واستبد به. وأقام وزيراً من بني وطاس ملائماً لمراده، ولم يخل له كلمة بل صار في الوزارة كما كان عبد الحق قبل ذلك في السلطنة، لا ذكر له ولا شهرة بل لا اسم. وأقام شخصاً من يهود فاس يقال له هارون بن بطش، كان صرافاً أو كالصيرفي عند الوزراء، فجعله كالنائب عن الوزير واختصر الوزير، وقصد بذلك نكاية بني وطّاس، بعد أن أباد جمعاً منهم، وحبس آخرين بمكناسة. وأقام منهم هذا الوزير الذي لا ذكر له، وكان اسمه أبو الحسن علي أيضاً، وكان أولاً قد غلب عليه بعض غلبة، حتى آل أمره إلى الغلب، فزواه عبد الحق بفاس في شبه الموكل به، ولم يمكنه من الكلام في المملكة نكاية فيه وفي غيره من الغائبين بالسجون، وآخرون تغلبوا على بعض أعمال فاس من الفارين من عبد الحق. وأقام اليهودي معرضاً بأنه كهم في الاحتياج إليه، وبقي اليهودي هذا هو الوزير في الحقيقة لا وزير غيره، وله التكلم في الوزارة، وهو باق على دينه. وذلك مما يسر عبد الحق، لأنه أبلغ في النكاية والإيذاء لبني وطاس. وأخذ عبد الحق هذا في تقريب اليهودي هذا، واختص به جداً بحيث صارت المملكة في يده، وعبد الحق به في أمان، إذ لا يمكن اليهودي أن يتجاوز حده، ولا يتعدى طوره على ما زعمه عبد الحق. وصار إلى هذا اليهودي الأمر والنهي في مملكة فاس، مع تلبسه بدين اليهودية. وصار يخاطب بالوزير أحياناً، فتطاولت اليهود في أيامه بفاس، بل بسائر الأعمال منها، وصار لهم قول وذكر وصيت وسمعة وشهرة، وعبد الحق راضٍ بذلك، بل مسرور به منسبط له. وكان الوزير هذا يتقلد السيف بالحمائل الحديدِ، المنقوش عليها كتابة آية الكرسي، وربما نقش عليها لا إله إلا الله

ومحمد رسول الله. وكان يركب الخيول المسوَّمة بشعار الوزراء بين يدي أستاذه، ويسلم عليه الجهلة بالوزارة، ويحضر مع السلطان في يوم الجمعة إلى الجامع، فينزله ويقف هو على باب الجامع إلى دخول السلطان إليه، ثم يجلس على الباب حتى تُقضى صلاة الجمعة، ثم يركب فيسير مع السلطان. وظهرت لهذا اللعين قبائح كثيرة وشنائع ومظالم. وكثر تسلط اليهود على المسلمين من أهل فاس بواسطته، فلم تحملهم العامة وأبغضوا عبد الحق بهذه الواسطة، وتمنوا زواله. على أن بني وطاس أيضاً كانوا كثيري المظالم على العباد، لكن أولائك وزراء مسلمين، بخلاف هذا اللعين الذي من غير الدين. ثم اتفق أن خرج عبد الحق في هذه السنة من فاس لبعض شؤونه، ومعه الوزير اليهودي، وقد أقام اليهودي هذا متكلماً عنه بفاس إنساناً من اليهود أيضاً من أقاربه يسمى شاول بن بطش، وهو ملازم دار السلطنة بفاس الجديد. فاتفق أن طلب اليهودي هذا امرأة من شرفاء فاس لقضية من القضايا، وأغلظ عليها في القول، بل يقال إنه بهدلها بضرب أو نحوه. وبلغ ذلك خطيب فاس سيدي أبا عبد الله محمد، وكان والمسلمون في قهر عظيم من قضية اليهود وظهورهم وتحكمهم في المسلمين، وكان دائماً يعرّض في خطبته في يوم الجمعة، بجامع فاس الأعظم الذي يقال له جامع القرويين، بأمور في حق اليهود بل ويعرض لتحريض العامة وتشجيعهم، عسى يقومون في هذه القضية لله تعالى وعلهم يثوروا فيها، حتى شاع أمره وذاع في ذلك. ولما وقعت هذه الكائنة من إحصار هذه الشريفة بايع نفسه لله، فخرج من داره وهو رافع صوته بأعلى ما تصل إليه قدرته في رفعه، في شوارع فاس وطرقاتها، بقوله: من لم يقم لله فلا مروؤة ولا دين له، ويعقب ذلك بقوله: الجهاد الجهاد. وأمر من ينادي بذلك أيضاً في شوارع فاس، فتسامع العامة بذلك، فثاروا معه في الحال، واجتمع عليه السواد الأعظم من كل فج عميق بفاس، وأخذوه قاصدين دار الشريف محمد بن عمران، وهو مزوار الشرفاء بفاس، كنقيب الأشراف بهذه البلاد، لكن مع حرمة وافرة وكلمة نافذة وشهامة ظاهرة. فدخل إليه الخطيب واستشاره معه، فلم يجبه واعتذر إليه بأنه لا يحسن القيام وحده، ولا ينهض بأعباء هذا الأمر مع وجود العلماء بفاس، وقبل أن يستفتوا عن هذه الكائنة. فبادروا إلى علماء فاس وجمعوهم، ومنهم بل أجلهم يومئذ، عالمها ومفتيها سيدي الشيخ الإمام العالم العلامة سيدي أبو عبد الله محمد القوري، فأحضروه ومن جمعوه إلى منزل السيد الشريف. فبدر الخطيب بأن قال لهم، جاهدوا معنا واغزوا وأعزوا

الإسلام. وتبعه العامة على مقالته، ثم قالوا: إن لم تغزوا معنا وإلا فأول ما نغـزوا فيكم، لأنكم شرفاء وعلماء، وأنتم راضون بحكم اليهود عليكم. ثم نادوا: الجهاد الجهاد ثانياً، وبالغوا في الحث على ذلك، وطلبوا من القوري أن يفتيهم، فامتنع من ذلك واعتذر لهم بالخوف من الشوكة. فتكاثروا عليه بعد أن كتبوا سؤالاً بواقعة الحال وما يصدر من اليهودي وكذا اليهود، وإن ذلك نقض العهد بعينه بل هو فوقه. وسلوا السيوف من أغمادها، وقالوا للقوريّ: نحن أيضاً أولوا شوكة وقوة، قمنا لله وبالغنا بأنفسنا، وهذا سؤال نريد منك أن تفتينا فيه بحكم الله تعالى، وإلا أرحنا الدنيا منك، لأنك عالم لم تعمل بعلمك، إلى غير ذلك من كلمات نحو هذه الكلمات. فلم يسعه إلا كتابة خطه بجواز قتل اليهود، ثم بجواز القيام عليهم، بل وعلى السلطان. وحين فرغ من خطه، بدروا إلى حارة اليهود، ووضعوا فيهم السيف، وقتلوا منهم ما شاء الله أن يقتلوا، ولم يكفوا عن أحد منهم حتى أفنوهم عن آخرهم، بحيث أخلوا الحارة منهم. وكان يوماً مشهوداً بفاس، وملحمة عظيمة قتل فيها جمع كثير العدد من اليهود. ثم قصدوا دار السلطنة فهجموها، وقتلوا اليهودي الذي كان بها نائباً عن الوزير. ثم أقاموا السيد الشريف محمد بن عمران المذكور، وأنزلوه بالدار المـذكورة، وأرادوا مبايعته فأشار عليهم ذوو التجارب والحنكات من أرباب العقول وأهل البصائر بعدم الاستعمال في ذلك حتى يظفروا بعبد الحق السلطان، وإلا أعياهم أمره. ثم دبروا بأن يكاتب الأعيان من أهل فاس والشريف لعبد الحق الغائب عن فاس، يـذكرون لـه الكائنة وقيام السواد الأعظم وثورانهم، ويعرفونه أن دار السلطنة كانت آئلة إلى النهب والخراب، لولا تطمئن خواطر السواد الأعظم بجعل السيد الشريف فيها، وهو ينوب عنكم إلى حين حضوركم، وعمل مصالح المسلمين والسواد الأعظم ولا يخرج شيء عن أمركم. وبعثوا إليه بذلك، وبنحو هذا من الكلمات. فحين بلغه ذلك. أخذ في الحال في أسباب التهيّء للعود إلى فاس، فبدر إليه وزيره اليهودي وقال له ليس عودك بمصلحة، فإن هذا الذي كتبوه حيلة على مولانا. وإن رأى مولانا نصره الله أن ينحاز إلى مدينة تازا أو غيرها من المـدن، حتى ينطفىء هـذه الجمرة ويقـوى أمر مولانا، ثم يتوجه إلى فاس وهو الأولى. وكـان الرأي مـع اليهودي، لكن إذا نـزل القضاء عمي البصر، فنهره عبد الحق وقال له: هذا هو رأيك الغشيش أولاً وآخراً، وهذا كله لأجلك لا بورك فيك. وكان إنسان من بني مرين بهـذا المجلس، ورأى السلطان قد حنق من اليهودي، فبدر إليه بحربة معه طعنه بها بحضرة السلطان، فوقع

ميتاً لوقته بين يدي عبد الحق، وقصد بذلك إرضاء أهل فاس إذا بلغهم ذلك، وأشار هذا الطاعن على عبد الحق في سرعة تدارك هذا الأمر بعوده إلى فاس. ووافقه إلى إشارته آخرون من خواص عبد الحق، وكان رأياً فاسداً لغلبة القضاء والقدر، وفراغ أجل عبد الحق وحضور منيته، فأخذ في جده في السير، بحيث سبق عساكره ووصل إليها في قليل من العسكر، وأكثر عساكره أحسوا بما لا خير فيه وبالشر، فقصروا في سيرهم خوفاً على أنفسهم من السواد الأعظم. وكانوا بالبعد عنه جداً ولم يحضر إلى فاس إلا في ثلثة أنفس من جماعته. ولما بلغ أهل فاس خبر وصوله إليهم، خرج السواد الأعظم إليه، وهم مظهرون أنهم خرجوا لملاقاته. وخرجت الطائفة الذين يقال لهم الوكارة، وهم بنحو الزُّعَّر بهذه البلاد، فساعة وقوع بصرهم على عبد الحق، ثاروا به ونادوا: الجهاد الجهاد فيما بينهم. وحين تسامع من كان مع عبد الحق من العسكر بذلك، انفلّوا عنه وفروا. وأخذ هو باليد، وأنزل من على فرسه. وكان ذلك بقرب مجازر فاس، فأتلي بمجزرة كما يُفْعَل بالغنم، وذُبح صبراً في وقته ذلك، في الثاني والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة. ثم عاد السواد الأعظم إلى فاس، فبايعوا السيد الشريف محمد بن عمران، وعقدوا له البيعة، وملكوه عليهم. ولما بلغ بني وطاس ذلك، أرادوا الرجوع إلى فاس ودخولها، فلم تمكنهم أهل فاس من ذلك. وحسن ببال الشريف بقاؤه بالملك، وجمع له جموعاً من عند طائفتي بني مرين الملوك، وبني وطاس الوزراء. واختلفت الكلمة بين أهل فاس وخارجها، ثم تسامع أهل المدن النائية عن فاس بهذه الكائنة، فثاروا بيهود البلدان، وفعلوا بهم نحو فعل أهل فاس بيهودها. وكانت كائنة عظيمة على اليهود، لعلها لم يقع لهم قبل ذلك نظيرها، وفنى منهم ما شاء الله تعالى. ووقع بعد ذلك بفاس وأعمالها خطوب وحروب، وفتن وأهوال، وفساد عظيم، وخراب بلاد وهلاك عباد. وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة مدن من بر العدوة، منها طنجة وأصيلاً وغير ذلك. ثم آل الأمر بعد ذلك أيضاً إلى أن ملك بنو وطاس فاس، وأخرجوا السيد الشريف محمد بن عمران منها بعد مدة سنين نحو الأربعة. وكان الشريف هذا بفاس لا تملّك إلا داخلها فقط، ولا حكم له على ما عداها من البلاد خارجها، والأعمال كلها بيد بني وطاس، وهم أيضاً على قسمين مختلفين، وعربان الخلط مع قسم، والشاوية مع قسم آخر. فوقع الاتفاق فيما بين القسمين على أخذ الشريف، فأخذوه ولم يقتلوه، وإنما أمروه بالمضي إلى حيث شاء رعاية لشرفه. ثم تعادت الطائفتان من بني وطاس، وأخرجت

إحداهما الأخرى، وتقاتلوا فيما بينهم. ولا زالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا. ولعلنا ننبه على هذه الحوادث في متجددات سني ما بعد الخمس وسبعين وثمانمائة إن شاء الله تعالى، فإنها محال وقوعها. وبالجملة فكانت هذه الكائنة من أعظم الكائنات.

[عبد الباسط، روض، ص 49-56]

الباب الثالث

جوانب اقتصادية

الفصل الأول

قطاعات ومجالات

55 ■ السوس الأقصى

وحَدُّه في المغرب البحر الأعظم. وعليه الرابطة العظيمة الشأن المعروفة برابطة ماسة، نسبت للمدينة التي استفتحها المسلمون وهدموها عند فتح السوس وهي تامِسّت. وحَدُّه في المشرق الصحراء المتصلة ببلاد لمتونة المرابطين مع الصحراء التي تتصل ببلاد زناتة في الجنوب. وحَدُّه في الجنوب مدينة نول في الغرب ومدينة أزقي في الشرق وهي حاضرة المرابطين، وحَدُّه في الشمال الجبل الأعظم المسمى بجبل درن المتقدم ذكره.

وفي بلاد السوس من المدائن سجلماسة وتاقرسيت وهي اليوم خراب. وكانت حاضرة وادي درعة. وفيه مدينة تارودنت وتاشكة وأتفركان ونول.

ومن هذه البلاد يجلب السكر السوسي إلى إفريقية والمغرب والأندلس وبلاد الروم والأفرنج. وكذلك النيل الدرعي والشب والنحاس المصبوغ السوسي. ومن هذا الصقع يخرج جلب الصحراء من الخدم والعبيد والعبقر وهو التبر بلغتهم. فتدخل القوافل إلى بلاد جناوة وغانة والحبشة وكوكو وزافور وأميمة. وتدخل كذلك من تافلالت وسجلماسة وإليهما يخرج سلبها وكل ما يجلب من العبيد والخدم والتبر والعاج والأبنوس وأنياب الفيلة والجلود الشركية ودرق اللمط وغير ذلك.

[الزهري، **جغرافية**، ص 189-190]

56 ■ سجلماسة: الازدهار الاقتصادي

وسجلماسة مدينة حسنة الموضع، جليلة الأهل، فاخرة العمل، على نهر يزيد

في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس في الجوزاء والسرطان والأسد، فيزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة. وربما زرعوا سنة عن بذر، وحصدوا ما راع من زرعه. وتواترت السنون بالمياه، فكلما أغدقت تلك الأرض سنة في عقب أخرى، حصدوه إلى سبع سنين، بسُنبل لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير، بحب صلب المكسر لذيذ المطعم، وخلقه ما بين القمح والشعير. ولها نخيل وبساتين حسنة، وأجنة، ولهم رطب أخضر من السلق في غاية الحلاوة. وأهلها قوم سراة مياسير. يباينون أهل المغرب في المنظر والمخبر، مع علم وستر وصيانة، وجمال واستعمال للمروؤة وسماحة ورجاحة. وأبنيتها كأبنية الكوفة، إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية (. . .).

ويقارب القيروان سجلماسة في صحة الهواء. ومجاورة البيداء، مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان وسائر البلدان، وأرباح متوافرة، ورفاق متقاطرة، وسيادة في الأفعال، وحسن كمال في الأخلاق والأعمال. يخرجون برسومهم عن دقة أهل المغرب في معاملاتهم وعاداتهم، إلى عمل بالظاهر كثير وتقدم في أفعال الخير شهير، وحنو بعض على بعض من جهة المروؤة والفتوة. وإن كانت بينهم الحنات والتراث القديمة، تواضعوها عند الحاجة، واطرحوها رياسة وسماحة وكرم سجية تختصهم وأدب نفوس وقف عليهم، بكثرة أسفارهم وطول تغربهم عن ديارهم تعزُّبهم من أوطانهم، ودخلتها في سنة أربعين، فلم أر بالمغرب أكثر مشائخ في حسن سمت، وممازجة للعلم وأهله، إلى سعة نفوس عالية وهمم سامقة سامية، وسائر أرباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال وتتقارب بالعصبية أوصافهم وتتشاكل أحوالهم ولقد رأيت باودغست صكاً فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من أهل سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبهاً ولا نظيراً ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستُطْرِفَتْ، ولم يزل المعتز أيام ولايتها وهو أميرها يجتبيها من قوافل خارجة إلى بلد السودان وعشر وخراج وقوانين قديمة على ما يباع بها ويشترى من إبل وغنم وبقر إلى ما يخرج عنها ويدخلها من نواحي إفريقية وفاس والأندلس والسوس. . .

[ابن حوقل، صورة، ص 91-92]

57 ■ سجلماسة: باب السودان

ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة. وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهرين، في صحراء غير عامرة، إلا بقوم ظاعنين ولا تطمئن بهم منزل. . .

[البكري، مسالك، ص 149]

58 ■ نول لمطة

ومن وادي السوس إلى مدينة نول ثلاث مراحل، في عمارة جزولة ولمطة. ومدينة نول آخر مدن الإسلام. وهي في أول الصحراء، ونهرها يصب في البحر المحيط.

[البكري، مسالك، ص 161-162]

59 ■ داي

من أغمات إلى موضع يعرف بأبواب عبد الخالق بن سي، وهي أحقاف رمل مرحلة. ومنها إلى فحص أفيح يعرف بفحص نزار، ونزار بالبربرية الغربال، شبه به لأنه مدور، وهو موضع مجوف، مرحلة. ومنه إلى وادي وانسيفن، واد كبير انبعاثه من موضع يقال له حدود بين بلد زواغة ومدغرة، ويقع في البحر المحيط، ويعبر على الزقاق المنفوخة مرحلة. ومنها إلى فحص يمللوا مديد واسع مرحلة. ومنه إلى موضع يعرف ببني وارث، وهو كثير شجر الفربيون، وهي شجرة صغيرة شوكاء لها عساليج يسيل منها لبن مسهل، مرحلة. ومنه إلى بلد زواغة مرحلة. ومنها إلى حصن داى، وهو في وسط غيضة كبيرة من أجناس الشجر، وله سوق حافلة، يجتمع فيها رفاق فاس والبصرة وسجلماسة بضروب الأمتعة والمتاجر، مرحلة.

[البكري، مسالك، ص 154]

60 ■ أغمات

وهى مدينتان سهليتان، أحدهما تسمى أغمات ايلان، والأخرى أغمات وريكة، وبها مسكن رئيسهم، وبها ينزل التجار والغرباء، وأغمات ايلان لا يسكنها غريب. وبينهما ثمانية أميال. ولها نهر لطيف جريته من القبلة إلي الجوف، ماؤه

زعاف يقال له تاقيروت، وحولها بساتين ونخل كثير. وهو بلد واسع يسكنه قبايل مصمودة. في قصور واجشار. وهو راخي الأسعار، كثير الخير، يحمل إليه من مدينة نفيس تفاح جليل يباع منه وقر بغل بنصف درهم. إلا أنه وخم الهواء، ألوان سكانه مصفرة، كثير العقارب القتالة التي لا يداوى سليمها. وبها أسواق جامعة. فسوق أغمات وريكة يقوم يوم الأحد بضروب السلع وأصناف المتاجر، يذبح فيها أكثر من ماية ثور وألف شاة، وينفد في ذلك اليوم جميع ذلك. وكانت أمرة أهل أغمات دولاً بينهم، يتولى الرجل سنة، ثم يديلونه باخر منهم عن تراض واتفاق، كذلك ذكر محمد بن يوسف القيرواني. وساحل أغمات رباط قوز على البحر المحيط، وفيه تنزل السفن من جميع البلاد، ولا تخرج منه السفن صادرة إلا في زمان الأمطار وتكدر الهوام واغبرار الجو. . .

[البكري، مسالك، ص 153]

61 ■ مليلة

ومنه [أجرسيف] إلى مدينة مليلة وهي مدينة مسورة بسور حجارة، وداخلها قصبة مانعة، وفيها مسجد جامع وحمام وأسواق. وهي مدينة قديمة، ويذكر أن بني البوري بن أبـي العافية المكناسي جددوها، ويسكنها بنو ورتدى. وهم يقترعون على من يدخل عندهم من التجار، فمن أصابته قرعة الرجل منهم كان تجره على يده، ولم يصنع شيئاً إلا تحت نظرة وإشرافه، فيحميه عمن يريد ظلمه، ويأخذ منه الأجر على ذلك، ويأخذ منه الهدية لنزوله عنده.

[البكري، مسالك، ص 88]

II ـ الفلاحة في المجال الحضري

62 ■ البصرة

والبصرة مدينة مقتصدة، عليها سور ليس بالمنيع. ولها مياه عن خارجها من عيون عليها بساتين يسيرة من شرقيها، ولها غلات كثيرة من القطن المحمـول إلى

إفريقية وغيرها. ومن غلاتهم القمح والشعير والقطاني، وسهمهم من ذلك وافر. وهي خصبة كثيرة الخير، حسنة الأسواق والعمارة، طيبة الهواء، صحيحة التربة. وفيها قوم لهم خطر وميل إلى السلامة والعلم، ولهم محاسن في خلقهم قد عمّت نساءهم ورجالهم، والغالب عليهم حسن القدود والشطاط، واعتدال الخلق وجمال الأطراف، ويشملهم الستر والسلامة والمعروف...

[ابن حوقل، صورة، ص 80]

63 ■ أغمات

ومدينة أغمات وريكة أسفل هذا الجبل من جهة الشمال، في فحص أفيح طيب التراب كثير النبات والأعشاب، والمياه تخترقه يميناً وشمالاً وتطرد بساحاته ليلاً ونهاراً. وحولها جنات محدقة وبساتين وأشجار ملتفة. ومكانها أحسن مكان من الأرض، فرجة الأرجاء، طيبة الثرى عذبة الماء، صحيحة الهواء. وبها نهر ليس بالكبير يشق المدينة ويأتيها من جنوبها، فيمر إلى أن يخرج من شمالها، وعليه أرحاؤهم التي يطحنون بها الحنطة. وهذا النهر يدخل المدينة يوم الخميس ويوم الجمعة والسبت والأحد وباقي أيام الجمعة يأخذونه لسقي جناتهم وأرضيهم ويقطعونه عن البلد فلا يجري منه إليه شيء.

ومدينة أغمات مدينة تكنفها جبل درن كما قلناه. فإذا كان زمن الشتاء تحللت الثلوج النازلة بجبل درن، فيسيل ذوبانها إلى نهر أغمات، وربما جمد في داخل المدينة حتى يجتاز الأطفال عليه وهو جامد، فلا يتكسر لشدة جموده، وهذا شيء عايناه بها غير مرة. ومدينة أغمات أهلها هوارة من قبائل البربر المتبربرين بالمجاورة. وهم أملياء تجار مياسير، يدخلون إلى بلاد السودان بأعداد الجمال، الحاملة لقناطير الأموال، من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب من الأفاويه والعطر وآلات الحديد المصنوع. وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله، إلا وله في قوافلهم مائة جمل، والسبعون والثمانون جملاً، كلها موقرة. ولم يكن في دولة المتلثم أحد أكثر منهم أموالاً ولا أوسع منهم أحوالاً. وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقاديرهم، وذلك أن الرجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في

تجارته، أقام على يمين بابه وعن يساره عـرصتين من الأرض إلى أعلى السقف. وبنيانهم بالآجر وبالطوب والطين أكثر، فإذا مر الخاطر بدار ونظر إلى تلك العرص مع الأبواب قائمة، عدها فيعلم من عددها كم مبلغ مال صاحب الدار، لأنه قد يكون من هذه العرص خلف الباب أربع وست مع كل عضادة اثنتان وثلاث. وأما الآن في وقت تأليفنا هذا الكتاب، فقد أتي على أكثر أموالهم، وغيرت المصامدة ما كان بأيديهم من نعم الله، ولاكنهم مع هذا أملياء مياسير.

[الإدريسي، **نزهة**، ج 1، ص 231-232]

64 ـــــــــــــــــــــــ ■ السوس الأقصى

ومن أرض درعة إلى بلاد السوس الأقصى أربعة أيام، ومدينته هي تارودنت. وبلاد السوس قرى كثيرة، وعماراتها متصلة بعضها ببعض. وبها من الفواكه الجليلة أجناس مختلفة وأنواع كثيرة، كالجوز والتين والعنب العذاري والسفرجـل والرمـان الإمليسي والأترج الكبير المقدار الكثير العدد، وكذلك المشمش والتفاح المنهـد، وقصب السكر الذي ليـس على قرار الأرض مثله طولاً وعرضاً وحلاوة وكثرة مـاء. ويعمل ببلاد السوس من السكر المنسوب إليها مـا يعم أكثر الأرض، وهـو يساوي السكر السليماني والطبرزد، بل يشف على جميع أنواع السكر في الطيب والصفاء. ويعمل ببلاد السوس من الأكسية الرقاق والثياب الرفيعة ما لا يقدر أحد على عمله بغيرها من البلاد. ورجالها ونساؤها سمر الألوان، وفي نسائهم جمال فائق، وحسن بارع، وجمال ظاهر وحذق صناعات بأيديهن. . .

[الإدريسي، نزهة، ج 1، ص 227-228]

III ـ الاقتصاد والبحر

65 ـــــــــــــــــــــــ ■ موانىء الساحل الأطلسي

ومن فضـالة إلى مـرسى آنفاً أربعـون ميلاً، وهـو مرسى مقصـود تـأتي إليـه المراكب، وتحمل منه الحنطة والشعير، ويتصل به في ناحية البر عمارات من البرابر من بني يدفر ودكال وغيرهما.

ومن آنفا إلى مرسى مازيغن خمسة وستون ميلاً روسية. ومن مازيغن إلى البيضاء جون، وهو ثلاثون ميلاً. ومن البيضاء إلى مرسى الغيط خمسون ميلاً، وهو جون ثان. ومن الغيط إلى آسفي خمسون ميلاً. ومن آسفي إلى طرف جبل الحديد ستون ميلاً. ومن طرف جبل الحديد إلى الغيط التي في الجون خمسون ميلاً. وكذلك من طرف مازيغن إلى آسفي روسية خمسة وثمانون ميلاً وتقويراً مائة وثلاثون ميلاً. ومرسى آسفي كان فيما سلف آخر مرسى تصل إليه المراكب، فأما الآن فهي تجوزه بأكثر من أربعة مجار. وآسفي عليه عمارات وبشر كثير من البرابر المسمين رجراجة وزودة وأخلاط من البرابر، والمراكب تحمل منه أوساقها في وقت السفر وسكون حركة البحر المظلم. وإنما سمي هذا المرسى بآسفي لأمر سنأتي به عند ذكرنا لمدينة اشبونة بغربي الأندلس، وذكر الشيء في موضعه أليق وأوفق والحمد لله كثيراً.

ومن مرسى آسفي إلى مرسى ماست في طرف الجون مائة وخمسون ميلاً...

[الإدريسي، **نزهة**، ج 1، ص 240]

66 ■ سبتة: الرواج البحري

وهذه المدينة بين بحرين. وهي ركاب البرين تشبه الإسكندرية في كثرة الحط والإقلاع. وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب الكبير بما فيه من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة، ولا يخرجون صاحبه إلى نقاص. وهي الآن غير راجعة إلى السلطان، بل يدبرها الفقيه العزفي. وعسكرها في أسطولها ومجريها في المراكب التي ترد عليها من البحر المحيط...

[ابن سعيد، جغرافيا، ص 73]

67 ■ سبتة: الصناعات المرتبطة بالصيد

وبمدينة سبتة مصايد للحوت، ولا يعدلها بلد في إصابة الحوت وجلبه. ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع. ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير الكثير، وصيدهم له يكون زرماً بالرماح، وهذه الرماح لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب في الحوت ولا تخرج، وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال. ولهم في ذلك دربة

وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك.

ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان الذي لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار. وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه. ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد، وأكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان، لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيراً.

[الإدريسي، **نزهة**، ج 2، ص 529]

68 ■ غزاة البحر ببجاية(*)

وذلك أن بجاية كانت بلدة غزاة، وكان غزاة قطعها يدخلون إلى دواخل الجزر الرومانية وغيرها ويسوقون السبي الكثير منها. وينزل الناس لشرائه بحومة المذبح من جهة ربضها وهناك يخمس ويقع الفصل فيه، ولم يزل الحال على ذلك، وبلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوخش، وكانت أجفان إسحاق بن غانية تصل أيضاً من ميورقة كما تصل به أجفان بجاية، وكان إسحاق ابن غانية بجزيرة ميورقة وهو بقية اللمتونيين، فوجه له من مراكش من قبل خليفتها من يطلبه بالبيعة والدخول تحت الطاعة، فامتنع من ذلك، وكان بين يديه ولداه علي ويحيى فقال للرسول أنا لا أراهم ولا يرونني، ولكن قل للموحدين يهيئون ما ينفقون على رأس هذين، وأشار إلى رأس ولديه، فانفصل الرسول عنه وتجهز الولدان بعد كبرهما في طرائد فيها بعض الفرسان ووصلا إلى شاطىء بجاية بمحل بيع السبي منها. وكانت البلدة شاغرة من الجيش، فتلقاهم الناس على عادة تلقيهم لأجل السبي، فنزلت الخيل معدة ولما وصلت له مستعدة، والناس ما عندهم من شأنهم خبر، فطلعوا على جبل الخليفة ودخلوا من باب «اللوز» إلى قصبة البلد وتملكوا البلد، ولم يكن فوق باب اللوز سور في ذلك الزمان، وطلبوا الناس بالبيعة فبايعوهم. . .

[الغبريني، **عنوان**، ص 45-46]

(*) يرِدُ هذا الوصفُ ضمن ترجمة الفقيه أبي الطاهر عمارة الحسني، المتوفى سنة 585/1189-1190.

69 ـــــــــــــ ■ وثيقة موحدية حول النشاط الاقتصادي بفاس

وبلغت مدينة فاس أيام المرابطين وأيام الموحدين من بعدهم من العمارة والغبطة والرفاهية والدعة ما لم تبلغه مدينة من مدن الغرب، وانتهـا عدد مساجدها في أيام المنصور وولده الناصر إلى سبعمئة واثنين وثمانين مسجداً.

وإحصاء ما بها من السقايا وديار الوضوء مئة واثنان وعشرون موضعاً، منها اثنان وأربعون موضعاً في ديار الوضوء، وباقيها سقايات، منها بمياه العيون، ومنها بمياه الأنهار.

وأحصيت الحمامات منها المبرزة للناس في تلك المدة فكانت ثلاثة وسبعين حماماً.

وأحصيت الأرحاء التي دار عليها سور المدينة فوجدت أربعمئة حجر واثنين وسبعين حجراً دون ما بخارجها من الأرحاء.

وأحصيت الديار بها في أيام الناصر، فكانت تسعة وثمانين ألف دار ومئتي دار وستاً وثلاثين داراً، وتسعة عشر ألف مصرية واحداً وأربعين مصرية.

ومن الفنادق المعدة للتجار والمسافرين والغرباء أربعمئة فندق وسبعة وستين فندقاً

وأحصيت الحوانيت بها في المدة المذكـورة فكانت تسعـة آلاف حانـوت واثنتين وثمانين حانوتاً، وقيساريتان، إحداهما بعدوة القرويين والثانية بعدوة الأندلس على وادي مصمودة.

وأحصى ما بها من الترابيع والأطرزة المعدة لصناعة الحياكة فكانت ثلاثـة آلاف موضع وأربعة وستين موضعاً.

وكان بها من الديار المعدة لعمل الصابون سبع وأربعون داراً، ومن ديار الدباغ ست وثمانون داراً، وديار الصباغ مئة دار وست عشرة داراً، وكان بها اثنتا عشرة داراً لسك النحاس، وكان بها من الكوش المعدة لعمل الجير وطفيه مئة كوشة وخمس وثلاثون كوشة.

وكان بها من الأفران في جهاتها وأزقتها ألف فرن ومئة وسبعون فرناً، وكان بها أحد عشر موضعاً لعمل الزجاج، وبخارجها من الديار المعدة لعمل الفخار مئة دار وثمان وثمانون داراً.

وكان بضفتي الوادي الكبير الذي يشقها من حيث يبتدىء الدخول إلى البلـد إلى آخرها حيث يخرج بالرميلة بالجانبين منه دار الصباغين وحـوانيتهم ودار الدبـاغ ودار الصبانين وحوانيت الخياطين والقصابين والسفاجين والكوش والأفران المعدة لطبخ الغزل وغيرهم مما يحتاج إلى الماء، وفي أعلا ذالك كله أطرزة للحياكة، ولم يكن بالمدينة واد يظهر

حاشا الوادي الكبير المذكور، وباقي أنهارها بني عليها ديار ومصارى وحوانيت، ولم يكن بداخلها رياض ولا غرس حاشا زيتون ابن عطية خاصة وكان بها أربعمئة حجر لعمل الكاغد، وخرب ذالك كله في أيام المجاعة والفتنة التي كانت في أيام العادل وأخيه المامون، وذالك من سنة ثمان عشرة إلى سنع سبع وتلاثين وستمئة، وكان مدة توالى الخراب عليها عشرين سنة إلى أن ظهرت الدولة المرينية، فانجبرت البلاد وتأمنت الطرقات.

قال المؤلف رحمه الله.

نقلت ذالك كله من تقييد بخط الشيخ الفقيه المشرف علي بن عمر الأوسي، نقله من زمام بخط المشرف القويقي مشرف المدينة في أيام الناصر الموحدي.

[ابن أبـي زرع، **قرطاس**، ص 47-49]

الفصل الثاني

التقنين والتجهيز

«في أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفه لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلّة».

والسبب في ذلك أنه قد عُرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وأنهم متعاونون جميعاً في عمرانهم على ذلك. والحاجة التي تحصل بتعاون طائفة منهم تسد ضرورة الأكثر من عددهم أضعافاً. فالقوت من الحنطة مثلاً لا يستقل الواحد بتحصيل حصته منه. وإذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار للآلات، وقائم على البقر وإثارة الأرض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفلح، وتوزعوا على تلك الأعمال أو اجتمعوا، وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت؛ فإنه حينئذٍ قوت لأضعافهم مرات. فالأعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم.

وأهل مدينة أو مصر إذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالأقل من تلك الأعمال؛ وبقيت الأعمال كلها زائدة على الضرورات؛ فتصرف في حالات الترف وعوائده. وما يحتاج إليه غيرهم من أهل الأمصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه، فيكون لهم بذلك حظ من الغنى. وقد تبين لك في الفصل الخامس في باب الكسب والرزق، أن المكاسب إنما هي قيم الأعمال. فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها بينهم فكثرت مكاسبهم ضرورة. ودعتهم أحوال الرفه والغنى إلى الترف وحاجاته من التأنق في المساكن والملابس واستجادة الآنية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب. وهذه كلها أعمال تستدعى بقيمها ويُختار المَهَرَة في صناعتها والقيام عليها، فتنفق أسواق الأعمال والصنائع، ويكثر دخل المصر وخرجه، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم. ومتى زاد العمران زادت

الأعمال ثانية. ثم زاد الترف تابعاً للكسب وزادت عوائده وحاجاته. واستنبطت الصنائع لتحصيلها؛ فزادت قيمها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية، ونفقت سوق الأعمال بها أكثر من الأول. وكذا في الزيادة الثانية والثالثة. لأن الأعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى، بخلاف الأعمال الأصلية التي تختص بالمعاش. فالمصر إذا فضل بعمران واحد ففضله بزيادة كسب ورفه وبعوائد من الترف لا توجد في الآخر. فما كان عمرانه من الأمصار أكثر وأوفر، كان حال أهله في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الأصناف: القاضي مع القاضي؛ والتاجر مع التاجر؛ والصانع مع الصانع؛ والسوقي مع السوقي، والأمير مع الأمير، والشرطي مع الشرطي.

واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع غيرها من أمصاره الأخرى، مثل بجاية وتلمسان وسبتة، تجد بينهما بوناً كثيراً على الجملة. ثم على الخصوصيات، فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان، وكذا كل صنف مع أهل صنفه. وكذا أيضاً حال تلمسان مع وهران والجزائر، وحال وهران والجزائر مع ما دونهما، إلى أن تنتهي إلى المدر الذين اعتمالهم في ضروريات معاشهم فقط، أو يقصرون عنها. وما ذاك إلا لتفاوت الأعمال فيها، فكأنها كلها أسواق للأعمال. والخرج في كل سوق على نسبته فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجه، وكذا القاضي بتلمسان. وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الأحوال أعظم. وهما بفاس أكثر لنفاق سوق الأعمال بما يدعو إليه الترف، فالأحوال أضخم. ثم هكذا حال وهران وقسنطينة والجزائر وبسكرة حتى تنتهي كما قلناه إلى الأمصار التي لا توفي أعمالها بضروراتها، ولا تعد في الأمصار إذ هي من قبيل القرى والمدر. فلذلك تجد أهل هذه الأمصار الصغيرة ضعفاء الأحوال متقاربين في الفقر والخصاصة، لما أن أعمالهم لا تفي بضروراتهم. ولا يفضل ما يتأثلونه كسباً، فلا تنمو مكاسبهم. وهم لذلك مساكين محاويج، إلا في الأقل النادر. واعتبر ذلك حتى في أحوال الفقراء والسؤال. فإن السائل بفاس أحسن حالاً من السائل بتلمسان أو وهران. ولقد شاهدت بفاس السؤال يسألون أيام الأضاحي أثمان ضحاياهم ورأيتهم يسألون كثيراً من أحوال الترف واقتراح المآكل، مثل سؤال اللحم والسمن وعلاج الطبخ والملابس والماعون، كالغربال والآنية. ولو سأل السائل مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنّف وزُجر.

ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال أهل القاهرة ومصر من الترف والغنى في عوائدهم

ما نقضي منه العجب. حتى إن كثيراً من الفقراء بالمغرب ينزعون إلى النقلة إلى مصر لذلك، ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها. وتعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة إيثار في أهل تلك الآفاق على غيرهم، أو أموال مختزنة لديهم. وأنهم أكثر صدقة وإيثاراً من جميع أهل الأمصار، وليس كذلك. وإنما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران هذه الأمصار التي لديك، فعظمت لذلك أحوالهم.

[ابن خلدون، عبر، ح 2، ص 641-644]

71 ■ **الماء وصيانة الأزقة**

سؤال عن الماء في المحجّة والسقي به ومن أحق به، الأرحى أو الجنّات، وهل يُعقل أم لا وأين يصرف إذا أوجب عقله وهل يحل عقلته باستغناء أحد المتخاصمين عنه، وهل الحكم فيما يقضي على ما غيره انبعث بعد الحكم أم لا؟

أشهد القاضي بسبتة وأعمالها عبود بن سعيد أن محتسباً قام عنده فذكر له أن عبد السلام بن فلان أجرى الماء المعروف بماء السياج بموضع كذا لمحجة المسلمين وأحفرها وأضر بالمارة بها، وأظهر إليه عقداً نسخته: يشهد من تسمى أسفل هذا العقد من الشهداء أنهم يعرفون الماء المعروف بماء السياج من قرية بليونش لا يعدو جنان ابن هذيل وإنه لم يجر قط في المحجة الممرور عليها إلى الأرحى، وإنما أحدثه عبد السلام، وأن هذه الطريق قد أفسدها الماء وأضر بالمارة بها، شهد بذلك إلى آخر العقد ونص البينة. وذكر في السجل إثباته العدالة لشهوده المذكورين، وذكر في السجل أنه أحضر المقوم عليه وعرفه بذلك فأقر بإجراء الماء المذكور، وأنه حق من حقوقه قد استوجبه بحكم حاكم، وحازه بالقدم وأن الشهود الذين شهدوا عليه جارون إلى أنفسهم لسقائهم من الماء المذكور، وأنهم لم يزالوا ينظرون إلى جري الماء المذكور، أكثر من عشرين سنة، ولا ينكرونه. وادعى المرفوع فيما ادعاه من ذلك، فذكر في السجل أنه جاء بعقد يتضمن جري هذا الماء في الزقاق المذكور ودخوله في جنة عبد السلام المذكور، وذكر القاضي أنه لم يقبل شهادة شهود هذا العقد لسقوط بعضهم عنده بالجهالة وجرحه آخرين، ولعلة ذكرها في العقد، وأنه غير عامل وذكر فيه أنه ثبت عنده أن عبد السلام كان من التعلق بالرغواطي، بحيث لا يجترأ على الإنكار عليه، وذكر أنه وسع للمقوم عليه في الآجال والتلوم، فلم يأتِ بشيء له نظر، فعجزه القاضي وحكم

عليه بقطعه ومنع إجرائه في الطريق ولا في وقت من الأوقات، وذكر في السجل أن المقوم عليه رغب أن يجعل للماء المذكور سرباً تحت الأرض ويغطيه حتى لا يضر بأحد، فذكر القاضي أنه ثبت عنده بشهادة من سماه أنه لا يومن من فساده وتهدمه، وأن جري الماء مما يضر بحيطان الجنات التي تليه بالبلد ويشيع الماء ويخاف من سقوطها.

السؤال على هذه الفصول:

تأمل ـ أعزّك الله ـ فصول هذا السجل، فإن قوماً غير المحكوم عليه قاموا بعد نحو الأربعين سنة يطلبون إجراء هذا الماء لسقي جناتهم، وقد اضطروا إلى ذلك لعدم الماء الذي كانوا يسقون به قبل هذا أيضاً، وزعموا أن سقيهم من هذا الماء من حقوقهم واستظهروا بشهادة عدول أنهم منذ سنين كثيرة من قبل أن يحكم القاضي المذكور بقطع الماء على الطريق وبعده لم يزالوا يسقون به، وأنهم قد غرسوا عليه غروساً، وكانوا لا يقدرون على جري الماء في الغالب إلا من هذه الطريق المحكوم بقطع الماء عنها، وليس في السجل حكم على غير جنة عبد السلام، ولا ذكر لغيره وفي أوله ما رأيت من شهادة الشهود أن عبد السلام هو الذي أحدث جريه، وأنه لم يجر فيها قط.

فتأمل شهادة الشهود وقولهم: لم يجر قط فيها، هل هو قدح في شهادتهم على ما في علمك في هذا أم يحكم الحاكم بمضيها، وهل هي إن صحت معاوضة لشهادة الآخرين الذين شهدوا لهؤلاء بالسقي، أم زيادة هؤلاء بأن عبد السلام هو محدثها عاملة عليهم، وقاطعة بحججهم، وهل ترى ـ أعزّك الله ـ أن الحكم والسجل عامل حتى يجأر موقع الحكم بتحديد جنان ابن هذيل وهذا الآن لا يثبت تحديده، ولا يوجد من يحوزه. وقد قال الشهود أيضاً: إنه لم يجر قط في المحجة المرور عليها إلى الأرض والجنات المتنازع فيها وجنان ابن هذيل إنما هو منها شارعة إلى أجنة المذكور، أم يغلب قولهم: لم يجر قط، ومنع القاضي المذكور من إخراجه في الطريق المذكور، ولم يذكر فيها جنان ابن هذيل، وقد شهد أنه بعد جنان ابن هذيل كما رأيت، فمقتضى الشهادة أنه لم يحتسب إلا فيما عدا الجنان المنسوب لابن هذيل، ولا شهد الشهود إلا فيما عدا جنان ابن هذيل، أم هو تناقض في الشهادة أو سد عبارة من موقعها فتتأمل ـ أعزّك الله ـ هذا كله وتفتي بالواجب فيه وكيف أعزك الله. وللقاضي المذكور حائط جنة على هذه المحجة التي شهد عنده بضرر

الماء بحيطان جناتها، وكيف إن شهد أن هذا الحائط مرتفع الأساس بحيث لا ينضر في الغالب، وكيف ـ أعزك الله ـ إن صح السجل عليهم، وصح تحديد جنان ابن هذيل فقاموا بضرر جناتهم وحاجتها إلى السقي وليس سائر المياه حولهم. هل يغلب ضررها على ضرر الطريق مراعاة لأخف الضررين لا سيما إن ثبت لهم أن الطريق اليوم بلطت بالحجارة، وأنه لا ضرر عليها من جري الماء فيها إلا ببلل الأرجل وشبه ذلك. وكيف إن كان قد انبعث بعد الحكم في الجنة عنصر انضاف إلى الماء المذكور، فقالوا هذا لم يحكم فيه، هل يجري عليه الحكم على غيره بقطعه عن الطريق أم يحتاج إلى استئناف حكم، وكيف إن دعوا إلى دفن الماء المذكور وإحكام سربه، هل يسوغ لهم هذا وقد شهد الشهود فيه بالسجل بما رأيت ومنع منه الحاكم لغيرهم. جاوبنا على ذلك كله فصلاً فصلاً، وكيف ـ أعزك الله ـ إن كان القائمون مشترين من قريب، هل يبيع من باع منهم ولم يعرف له قيام، ولا إعذار إليه في السجل هل يقطع دعواهم في الماء المذكور، أم لا يقطع ذلك لشهادة من شهد لهم أن هذه الجنات لم تزل تسقى بهذا الماء، وأنهم اشتروا الجنات بحقوقها ومنافعها أو لحاجتهم إلى السقي. بيّن لنا ذلك مأجوراً إن شاء الله تعالى.

الجواب: تصفحت ـ أعزّك الله بطاعته وتولاك بكرامته ـ سؤالك هذا ووقفت عليه، وقد تقدم من جوابي في إحدى المسائل التي ذكرت وصولها إليك أنه إذا ثبت الحكم بقطع جري الماء على الطريق إلى الجنات لضرر ذلك بالطريق بإشهاد القاضي الحاكم بذلك على نفسه ببينة عدلة لا مدفع فيها لأصحاب الجنات، ولم يكن لهم طريق سواه، بطل حقهم في السقي به إلا أن يجرّحوا شهود العقد الذي ثبت الضرر به عند الحاكم فيكونون حينئذٍ أحق بالماء لسقي جناتهم زمن حاجاتهم إلى السقي. ومن تمام ثبوت الحكم الذي لا يصح دونه حيازة الموضع الذي حكم بقطع جري الماء عليه لثبوت الضرر عنده فيه، فإذا تعذر ذلك بما ذكرت من أن جنان ابن هذيل الذي تضمن العقد أن الماء المذكور لا يتجاوزه ولا ثبت تحديده، ولا يوجد من يحوزه إلى ما في الأمر من الالتباس بما تضمنه العقد من أنه لم يجز قط في المحجة المرور عليها إلى الأرحى فالواجب أن يبطل الاعتبار بالتسجيل المذكور، ولا تكون فيه حجة لأصحاب الأرحى ويستأنف النظر في الأمر فلا يمنع أصحاب الجنات من إجراء الماء في الطريق لسقي جناتهم التي قد أنشأوها على ذلك الماء إلا أن يعظم الضرر بذلك على الناس في المحجة ولا يمكن دفنه بما ذكرت من تبليطه بالحجارة

أو تحصين مجراه وبالله التوفيق. قاله محمد بن رشد.

[عياض، مذاهب، ص 109-112]

72 ـــــــــــــ ■ المحتسب والسهر على سلامة أهل المدينة

قال ابن عبد الرؤوف: يمنع الناس عن الجلوس على الطرق والإحداث فيها وعقد المصادع فيها من غير حاجة إلا لمأمون خاصة.

ويمنع عن طرح الأزبال والجيف وما أشبهها في المحجات؛ فإن ذلك يضر بالديار؛ فأما الأوساخ، فإنها لنجس، ولا سيما عن المطر، يكلفون بنقل ذلك إلى خارج البلد. وتتعاهد المساجد ورحابها وما دار بها عن طرح الأزبال بفنائها والنجسات. ويُنهى مَنْ فعل ذلك، فإن عاد عوقب.

ويمنع حُمّال الحطب وكل من يحمل محملها بالمشي بها في المحجات والطرق الضيقة؛ ويكلفون النزول بها في الرحاب الواسعة للبيع؛ ويمنعون هم وغيرهم عن توقيف الدواب بأحمالها حتى يباع ما عليها؛ ويؤدبون إن عادوا. وكذلك الذين يحملون على ظهورهم يمنعون أن يحملوا على ظهورهم الأعدال الثقال؛ فيكون ذلك داعية أن يهلك تحته أو تقع من على ظهره لثقلها على أحد فتهلكه.

ويمنع الصباغون ومن في معناهم عن نشر الثياب المصبوغة المبلولة على الطرق؛ فإنها تؤذي الخاطرين بتغيير ثيابهم. وينهون عن اتخاذ أفرانهم على الطرق؛ فإنهم يؤذون المجتازين بالدخان. ويكلف من فتح سرباً وأخرج ما فيه أن ينقله إلى خارج البلد، ويسوي موضع السرب، ويعدل الطريق، وينظفه من الأذى لئلا يضر بذلك المار عليها.

ويُؤمر الفخارون ومن معناهم بإزالة ما يضعونه من حوائجهم في الطرق خيفة أن تفسد عليهم لتضييقهم الطريق بها فتكون داعيةً للشر والخصومة.

ويمنع الناس من الدخول في القيسارية والأسواق على ظهور الدواب لما لا يؤمن منها. ويمنع من توقيفها في الطرق الضيقة ومن إرسالها من غير ممسك لها. ومن وجد يحدث في طريق حدثاً، زُجر؛ فإن عاد، أُدب؛ وإن كان صغيراً، نهي وعُرِّف وليه.

ويمنع الخضّارون والحصّارون عن طرح أزبالهم في الطرق.

ويمنع الفرّانون والزجّاجون عن جعل الأحطاب على مقربة من مكان النار خوفاً لئلا يتخذ النار فيها فتحترق، فتؤذي الناس والجيران.

وينهي الجبّاسون عن خلط التراب بالجبس عند الطبخ، وهو الذي يسمونه القطائف؛ وهو غش. ويُؤمرون أن يغربلوا الجبس بالغربال الوسط.

ويؤمر الفخّارون بتسييل ترابهم وتطييبه وأن يقلّلوا فيه من الرمل. وكذلك صانع الأجُرّ والقراميد. ويؤمر بتغليظها وبصواب عملها وحسن طبخها ولا تكون مسيَّلة ولا معوَّجة ولا رقيقة الشقف. وكذلك يؤمر صانع اللّبن أن يقلل من الرمل عند عملها وانتخاب التراب الطيب لها، وأن يحسن مقدارها، ويعدل موضع عملها، وأن يبالغ في تيبيسها؛ وإن جعل فيها عوضاً من الرمل تبناً مسحوقاً، فهو له أحسن إن شاء الله تعالى.

[ابن عبد الرؤوف، حسبة، ص 110-112]

73 ■ الأعمال الخيرية: المارستان

وكان [المنصور الموحدي] كثير الصدقة، بلغني أنه تصدق قبل خروجه إلى هذه الغزوة ـ أعني التي كانت فيها الوقعة الكبرى ـ بأربعين ألف دينار، خرج منها للعامة نحو من نصفها، والباقي في القرابة، أدركتهم وقد قسموا مدينة مراكش أرباعاً، وجعلوا في كل ربع أمناء معهم أموال يتحرون بها المساتير وأرباب البيوتات، وكان كلما دخلت السنة يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون؛ فيُجمعون إلى موضع قريب من قصره، فيختتنون ويأمر لكل صبي منهم بمثقال وثوب ورغيف ورمانة، وربما زاد على المثقال درهمين جديدين، هذا كله شهدته لا أنقله عن أحد من الناس.

وبنى بمدينة مراكش بيمارستاناً ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه، إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتّان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف

ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم، من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نَقَهَ المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل، وإن كان غنياً دفع إليه ماله وترك وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت، وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله، يعود المرضى ويسأل عن أهل بيت أهل بيت، يقول: كيف حالكم؟ وكيف القُوَمَةُ عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، لم يزل مستمراً على هذا إلى أن مات رحمه الله.

[المراكشي، **معجب**، ص 411-412]

74 ■ الأعمال الخيرية: البزهار(*)

وحدثني والدي رحمة الله عليه قال: كنت جالساً مع طلبة الحضر على باب ملك المغرب منصور بن عبد المؤمن ينتظرون الإذن بالدخول عليه والمذاكرة بين يديه على جري عادته في ذلك بحاضرة مراكش ودار حكمه ومعنا القاضي والعدول، ومقدمو الأطباء ورؤوس العلماء في كل فن، حتى خرج إليهم الخادم الخاص بالإذن إليه وفي يده درج وإذا عليه ورقة ملصقة فيها بازهر حيواني، وقرأنا الورقة التي ناولها الخادم وإذا فيها: تحضر الأطباء ومقدمو الجوهريين وتعتبر ما في هذا الدرج من الحجارة بالمحنة والاختبار الصحيح فما صح منها عزل وما لم يصح يكسر ويسحق، ثم يرد إلينا من صحيحه عشرة أحجار ويفرق باقيها على أمناء السوق ومشايخ الأرباع بجميع المدينة داخلها وخارجها مما يسهل وصول المضطر إلى شيء منها إليهم، ويؤمرون بأن يشهر ما أودع عندهم فيها، ويكون ذلك موثوقاً لديهم، مسبلاً لكافة الناس من قريب وبعيد، وبلدي وغريب لانتفاع الناس كافة بذلك والمثوبة عليه إن شاء الله تعالى. قال: ففعلت ذلك وامتحنت الأحجار بأن أحضرت الأفاعي وأرسلت على الفراريج بعد إطعامها حكاكتها، وكانت الحجارة نيفاً عن مائتي حجر، فصح

(*) هذا النص مقتبس من كتاب في علم الأحجار والمعادن، وقد ورد في الباب الخاص بالبزهار.

بالمحنة دون الستين، وتزيف الباقي فكسر وسحق، وفعل بالباقي منها ما أمر.

[التفاشي، أزهار، ص 140-141]

75 ـــــــ ■ الأعمال الخيرية: صدقات روضة أبي العباس السبتي

وقال ابن الخطيب: وروضته بباب تاغزوت أحد أبواب مراكش غير حافلة البناء، ربما يتبرع متبرع باحتفالها فلا تساعده الأقدار، وزرتها، وربما شاهدت في داخلها أشياخاً من أهل التعفف والتصوف يسارقون خفية الناظر إلى مساقط رحمات الله تعالى عليها لكثرة زائريها، فيقتحم ذو الحاجة بابها خالعاً نعله مستحضراً نيته ويقعد بإزاء القبر ويخاطبه بحاجته، ويعين بين يدي النجوى صدقة على قبره، ويدسها في أواني في القبر معدة لذلك، ومن عجز عن النقدين تصدق بالطعام ونحوه، فإذا خف الزائرون آخر النهار عمد القائم إلى التربة إلى ما أودع هناك في تلك الأواني وفرّقه على المحاويج الحافّين بالروضة، ويحصون كل عشية، ويعمهم الرزق المودع فيها، وإن قصر عنهم كملوه في غده.

قال ابن الخطيب لسان الدين: وترافع خدام الروضة لقاضي البلد، وتخاصموا في أمر ذاك الرزق المودع هناك، فسألهم القاضي عن خَرْجه اليوم، فقالوا: يحصل في هذه الأيام في اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهباً عيناً، وربما وصل في بعض الأيام لألف دينار فما فوقها، فروضة هذا الولي ديوان الله تعالى في المغرب لا يحصى دَخله ولا تحصر جبايته، فالتبر يسيل، واللجين يفيض، وذو الحاجة كالطير تغدو خماصاً وترجع بطاناً؛ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

قال: وأنا ممن جرب المنقول عن القبر، فاطرد القياس، وتزيفت الشبهة، وتعرفت من بدء زيارته ما تحققت من بركته، وشهد على برهان دعوته؛ انتهى.

[المقري، نفح، ح 7، ص 272-273]

76 ـــــــ ■ مداخيل الدولة

وسمعت أبا الحسن بن أبي علي الداعي المعروف، كان بحمدان قرمط، وهو صاحب بيت مال أهل المغرب يقول: في سنة ست وثلثين وثلثمائة، دخل المغرب من جميع وجوه أمواله وسائر كوره ونواحيه وأصقاعه عن خراج وعشر وصدقات ومراع

وجوال ومراصد، وما يؤخذ عما يرد من بلد الروم والأندلس، فيُعشَّر على سواحل البحر. وما يلزم الخارج من القيروان إلى مصر ويلزم ما يرد منها من الورق والمقوّم بقيمة العين، والعين المجتبى من هذه الوجوه، فيكون من سبع مائة ألف دينار إلى ثمان مائة ألف دينار. قال: ولو بسطت يده فيه لبلغ ضعفه وإن قصر عن ذلك فالقليل، وسمعت هذه الحكاية بعينها واللفظ بصيغته من زيادة الله أبي نصر بن عبد الله بن القديم في سنة ستين، يذكرها عن نفسه. وكان صاحب الخراج بإفريقية وجميع المغرب وكأنهما تفاوضا القول وعلما وجوه ذلك. وما يدخل فيه من ارتفاق أصحاب الأعمال واستئثارهم بما يزيد على القوانين في أيديهم. وما أبعد أن يكون ذلك كذلك لما تبيّنته في ضمان برقة وحالها. وكان جميع المغرب في أيام آل عُبيد الله يعمل بالأمانة من غير ضمان، حتى تقبّلت برقة وليس بجميع المغرب ضمان غيرها. . .

[ابن حوقل، صورة، ص 96-97]

77 ■ جغرافية الجباية (عهد أبي الحسن المريني)

ولقد كان الناس زمان أبيه في جور، حتى ولي فبسط بساط العدل، وحمل على محجة الانصاف، وأبطل المظالم وعلى يد كل ظالم؛ وأسقط المكوس، ولم يدع إلا الخراج والزكوة والعشر، وما يوجبه موجب طلب الشرع السرف وحل عقد الضمان، وكانت سبباً للظلم والطلب المجحف. وكان يقال أن بعد أن حل البلاد من الضمان تنقص الأموال، فزادت وأدر الله تعالى بالعدل من البركات أضعاف ما كان.

قال أبو عبد الله السلالجي: أما ما ازداد وتتمز فلا أعلم كم هو، وأما ما كان في عقدة الضمان في زمان السلطان أبي سعيد، والد هذا السلطان، خارجاً عما كان يؤخذ من أصحاب الماشية من الإبل، والبقر والغنم، فهو تفصيله: فاس، مائة وخمسون ألف مثقال؛ ومراكش مائة وخمسون ألف مثقال؛ سبتة، خمسون ألف مثقال؛ آسفي خمسة وعشرون ألف مثقال؛ أغمات، خمسة وعشرون ألف مثقال؛ آنفاً أربعون ألف مثقال؛ آزمور، عشرون ألف مثقال؛ سلا، أربعون ألف مثقال؛ العرائش، عشرة آلاف مثقال؛ قصر بن عبد الكريم، عشرون ألف مثقال؛ طنجة، ثلاثون ألف مثقال؛ بادس، عشرة آلاف مثقال؛ مكناسة، ستون ألف مثقال؛ صفروي، ستة آلاف مثقال؛ سجلماسة ودرعة، مائة وخمسون ألف مثقال؛ تازى،

ثلاثون ألف مثقال؛ غصاصة ومليلة، المزمة، ثلاثون ألف مثقال؛ تيط، خمسة آلاف مثقال؛ تيجيساس، خمسة آلاف مثقال.

قال السلالجي: وهذا الضمان، كان جارياً على جميع المجابي، ما كان يستأدي من وجوه الخراج والزكاة والمُوجَبات والمكوس، خارجاً عن عداد المواشي وغلات المجاشر والحصون والقلاع، والمجاشر وهي القرى. قال: وأما تطاوين، والقصر الصغير، وصا، فإنها كانت بكفلها لا يتحصل شيء منها. قال: هذا المبلغ هو الذي كان يجري عليه الضمان، وقد كان يزيد وينقص باختلاف الأحوال والأوقات، وإنما هذا هو الغالب ولا كثير تفاوت فيما يزيد أو ينقص منه. قال: والذي استفتحه الآن هذا السلطان لا يقصر عن نظر الثلثين عما كان بيده، وإن قصر عن الثلثين، فإنما يقصر شيئاً يسيراً لأن تلمسان مملكة جليلة وسيعة المدى كثيرة الخير، ذات حاضرة وبادية وبر وبحر.

[العمري، مسالك، ص 123-124]

الفصل الثالث

الاقتطاع الجبائي

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره، وأمده بمعونته، إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة، وفقهم الله تعالى واستعملهم بما يرضاه.

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

أما بعد:

فالحمد لله، وهو اللطيف الكريم، الرؤوف الرحيم، الذي بعدله قامت السموات والأرض وبه تقوم، وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم، ولأمته المخلصة في عليين كتابها المرقوم، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، الذي بعثه رحمة للمؤمنين، ينيلهم به الروح والنعيم، ويريهم رحيقها المختوم.

وكتابنا هذا ـ كتب الله تعالى لكم كل رأفة ورحمة، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمه ـ، من الحضرة العلية بتينملل ـ حرسها الله تعالى ـ في سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة: وقد وصلناها ـ والحمد لله ـ وجناح الرحمة مخفوض، وطرف المكاره مغضوض، وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض، وشأن الظلم ـ بإذن الله تعالى ـ مكفوف مقبوض، والحق أبلج لا كناية ولا تعريض.

(*) مقتطفات من رسالة عبد المومن المشهورة والمعروفة بـ «رسالة الفصول» وهي وثيقة تتضمن التوجيهات الأساسية للدولة الجديدة.

(. . .) وقد اتصل بنا ـ وفقكم الله تعالى ـ أن من لا يتقي الله تعالى ولا يخشاه، ولا يراقبه في كبيرة يغشاها وتغشاه، ولا يؤمن بيوم الحساب فيما أذاعه من المنكر وأفشاه، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار. وينتشرون بالقتل بأعراض الناس أقبح الانتشار، يستحلون حرمات المسلمين من غير حلها، ويسارعون إلى نقض عقد الشرع وحلها، ويصفون الشدة والغلظة بطراً ورياء في غير محلها، ويبتدعون من وجوه المظالم، ما تضعف شواهق الجبال عن حملها، ويستنبطون من فواحش الآثار ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ويتسببون إلى قتل المسلمين فضلاً عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبيسات ينشؤونها، ومزورات يضيفونها إليهم وينسبونها، وينظرون إلى اهتضام حق الله تعالى فيهم بأباطيل يعدونها ظلماً ويحسبونها، ويسعون في استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة، ويعيثون فيهم بكل غاصبة للقلوب منتزعة، والنبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلام يقول: «من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول: يا رب، سل هذا فيم قتلني عبثاً من غير منفعة؟»، ولا يلتفتون إلى عاقبة ولا ينظرون، ولا يمرون بآذانهم ما يفعل الله تعالى بأمثالهم ولا يحذرون، ﴿يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾، هيهات! هيهات! إنهم ساء ما كانوا يعملون، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم في أقرب أمد ما يهدهم هداً، ويجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سداً، ويستأصلهم بصواعق الانتقام.

(. . .) ولقد ذكر لنا فيما ذكر من تلك المظالم، المستغرقة لأنواع المآثم، الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم، أن أولياءك الخائضين في غمرات أبحرها، المثيرين لأسباب منكرها، الصارمين لعلق الشريعة القاطعين لأبهرها، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط إبلاغاً في الانتهاء بكثرتها وإمحاشاً، ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس إيغاراً للصدور وإيحاشاً. وذلك، أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله، أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه، ما أبعد العدل ـ أصلحكم الله تعالى ـ عن هذه الأمثال والأشباه!.

وقد علمتم أن عادتنا فيمن يستوجب الضرب أو يستحقه، ممن يظلم الأمر الشرعي أو يعقه، حدود معلومة، دون إفحاش ولا انتهاك، ومواقف مرسومة، تقابل كلا بمقتضى جرمه من أثيم أو أفاك.

ولقد ذكر لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسي وغيرها ما

رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكا، وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلكا، وأكثرها في نفس الديانة عيثاً وفتكاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون! هل قام هذا الأمر العالي إلا لقطع أسباب الظلم وعُلقه؟ وتمهيد سبيل الحق وطرقه؟ وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه؟ اللهم إنا نشهدك أن سبيلنا سبيلك، وإنا نستعيذك مما استعاذك منه محمد رسولك. روى عنه ﷺ أنه قال: «أعوذ بالله من المغرم والمأثم» تنبيهاً على ما في إغرام الناس من الظلم المظلم. ولئن نقل إلينا ـ والله الشاهد ـ أن نوعاً من هذه الأنواع المحرمة، أو صنفا من تلك الأصناف المظلمة، يتولاه أحد هنالك من البشر، أو يأمر بشيء من ذلك الفعل المستنكر: لنعاقبنه بمحو أثره، عقاباً يبقى عظة لمن اتعظ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ.

وإن من ذلك الرأي الذميم، والسعي المنقوم، ما ذكر لنا في أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها، يتسبب إليهم قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذين يضعون الغش طي ما يوهمون به من النصيحة، ويستبطنون المكر في تصرفاتهم القبيحة، فيقولون للرجل منهم: عندك من حقوق الله كيت وكيت، وإن للمخزن جميع ما به أتيت! ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم مناله، وإنها لداهية عاقرة، قاصمة للظهرة فاقرة، ويا عجباً لكم ـ معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين ـ فإنكم بذلك مطلوبون، وما حجتكم وما أنتم على حق كيف تتكيف هذه الكبائر وأنتم للأمور هنالك رصد؟ أم كيف تجري هذه الظلمات وقد قام للحق أود؟ أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك؟ والحرمات تنتهك؟ ولا يمتعض لذلك منكم أحد؟ كلا، ليعاقبن كل من جنى، وليظهرن ما قصد القاصد وما عنى. وإن وراء قولنا، لتتبعنا يبحث عن ذلك ويمحص، ونظراً يفرق بين المشكل منه ويخلص!.

[ابن القطان، نظم، ص 188-195]

79 ـــــــ ■ الضرائب غير الشرعية بين الإحداث والحذف: إصلاح أبي الحسن المريني

كان أمامنا رضي الله عنه أشد الأئمة مسارعة لحسنة يندبها ولسيئة يمحو أثرها،

فقامت السنن في مدته على ساق، وذهبت آثار البدع ولم يبق لها انتظام ولا اتساق، فلنذكر في هذا الفصل ما محاه من المناكر ورفعه من المكوس من البوادي والحواضر، أما ما أحفظ له مما رفعه بمدينة فاس المحروسة فأولها ما كان يرفع من فوائد المروس، كان يؤخذ عن ذلك مال جسيم يصرف في مرتبات النصارى الملازمين للخدمة، وهو مال طائل ينتهي عدد النصارى إلى ثلاثة آلاف فارس وإن قلوا فإلى ألفين، ورواتبهم كبيرة من الخمسين ديناراً من الذهب إلى خمسة دنانير ذهباً في كل شهر غالباً، فينفذ ذلك كله مما ذكرناه، فرفعه رضي الله عنه ومحا أثره ولم يبح لهم من الخمر إلا ما يسوغ لهم، ومن ظهر عليه أنه باعه لمسلم أو استظهر به، بولغ في عقوبته وجعل عبرة للمعتبر، وعوض لهم مرتباتهم من بيت ماله لانتفاع المسلمين بهم، فأنت ترى مقدار هذا المال الذي ترك لوجه الله ومما رفع عنهم الخرص في الجنات، وكان عظيم المضرة، يوظف على الناس وظائف في جناتهم ربما تعجز الجنات عن التوفية فأدى ذلك إلى أن قطع كثير من الناس جنته ليسقط عنه وظيف الخرص هكذا غير واحد من الفاسيين وهو كالجزاء بإفريقية.

ومن جملة ما رفع عنهم وظائف استغراق السلع إذا ظهر الولاة على أن التجار تحملوا في سرقتها المخزن فكانوا يجعلون عقوبة ذلك أخذ السلعة كلها أو تغريم خمسة مخازن، وهو تضعيف المغرم المعهود خمس مرات فكان الولاة يجمعون في ذلك أموالاً جمة، يلتزمون بسببها ما يلتزمونه، فأسقط ذلك رضي الله عنه وكتب الله له أجر محو هذه السيئة. ومما رفعه، وكان شائعاً شنيعاً، اكتراء الولاة للبلاد فإنهم كانوا يلتزمون مجابي البلاد التزاماً، وكان سبب هذا تمالئهم على الخيانة في ولايتهم على سبيل الأمانة فإذا تولوها التزاماً امتدت أيديهم وكثرت عاديتهم وظلمهم. فإذا زجروا، اعتلوا بالالتزام. فأسقط رضي الله عنهم هذا اللقب ولم يبق له أثر في المغرب. فصار يوليهم إياها أمانة وترك في ذلك أموالاً طائلة ابتغاء وجه الله فرأى أثر ذلك دنيا وأخرى. ما زلت أسمع صاحب أشغالهم الفقيه أبا الحسن القبائلي في كثير من الأوقات، يعارض ما يجبى في بلد أمانة مع جباءتها التزاماً فيقول: «تقارب الخرجان أو زاد أحدهما زيادة ما». فارتفع في هذا اللقب من المظالم ما يكتب الله لهم أجره ويجزل لهم ذخره، وهذا مما عم به سائر البلاد، ومما رفعه مما عظم به المصاب النزول المعهود في بلاد الأندلس وغيرها من العدوتين، ومما رفعه رضي الله عنه، وهو مال جسيم، له قدر عظيم، المغرم الذي تعوده أهل سجلماسة وسائر بلاد القبلة،

فإنهم كانوا يغرمون مغرماً يسمونه الجمون في النخل والزرع، يجتمع فيه كل سنة أحمال من الذهب مغرماً ألفوه، وفي بلاد النخل والزرع عرفوه. فرفعه بجملته ورده إلى الخرص الشرعي وسبيله السوي. فحييت بذلك نفوسهم وذهبت بذهاب هذا اللقب قلوبهم واقتصروا بعد هذا الأمر النكر على الزكاة والعشر، وفاز في ذلك بعظيم الأجر وجزيل الذخر وجميل الشكر، وقلد هذه الأعمال للعدول والقضاة والأمناء والثقات.

ومن عظيم الضرر الذي رفعه والنكر الذي محا أثره، وعن المتضررين به وضعه في جميع بلاده القانون، وهي البلاد التي ترجع لجباية معلومة، كانوا يوظفون فيها المغارم على الرؤوس فيجعلون على كل شخص، صغيراً أو كبيراً قوياً أو ضعيفاً حتى الرضيع، مغرماً يخصه، وكانت مظلمة لا نظير لها في المظالم المحدثات، وصارت أخت الجزيات المضروبة على أهل الذمة بل أشد، فأسقط ذلك، وكان يجتمع فيه لا يحصى قدره ففاز رضي الله عنه بثواب لا يحصى قدره، ورد المغارم على الأموال والأملاك بحسب الجدة والقدرة (نفعه الله بذلك). والإنزال في دور المعتبرين بعدوة الأندلس وهو ضرر عظيم والفطرة التي كانت تؤخذ في رمضان وغير ذلك من الألقاب، ومما رفعه رضي الله عنه عن أهل البوادي جملة ألقاب لا تحصى كثرة كالخرص والبرنس والضيافة والإنزال والقاعة والخطيئة، وهذه كلها ألقاب يعرفها أهل المغرب، يجتمع فيها الأموال ذوات العدد وغيرها مما لا أذكره. وهذه حوادث أحدثها الولاة قديماً وهلك الخلائق بسببها، فلم يبق لها في المغرب أثراً.

وهذا الذي ذكرته أمثلة جرت على ذكري، وإلا فمن عرف عوائد بلاد المغرب عرف ما أشرت إليه وأذكره في هذا القدر الذي ذكرته ما أغفلته ونسيته. فسن هذه السنن وعمل بها بنوه (نفعهم الله وأدام ملكهم بمن الله وفضله).

ولما استولى على تلمسان وأحوازها، أسقط عنهم رضي الله عنه الربع من سائر المغارم وشتى المجابي والملازم، وأسقط ألقاباً كانت منكرة جملة فلم يبق لها أثراً منها ما كانت تعم به البلوى من المطالبات في الأبواب من التفتيش الذي لا يحترم فيه من الناس أحد، فيتولى المسلم نصراني ويهودي وخارجي ويحيطون به فيفتشونه من رأسه إلى قدمه ظاهراً وباطناً لما عسى أن يدخل به من السلع التي يوظف عليها مغرم من المغارم، وحتى النساء يوكل بهن يهوديات يفتشنهن ويدخلن يديهن إلى لُحُومهن،

وفي هذا من الشناعة والبشاعة ما لا يخفى. وكان هذا العمل في تلمسان وأعمالها، ولم يك فيما علمت في قطر من الأقطار إلا ما رأيته أو قريباً منه بالإسكندرية (حاطها الله وطهرها من هذا العمل وضاعف أجر من يمحو أثره). ورفع فيها من المغارم ما كان شائعاً خسيساً، ويجتمع فيه أموال كالمغرم على الحطب والبيض والدجاج والتبن وسائر المرافق التي يفتقر إليها القوي والضعيف، وإجحاف الضعيف بها أشد وغير ذلك من المغارم ورفع فيها أيضاً تضعيف المخازن في الاختفاء، ولم يبق لذمي ولاية على مسلم في المجابـي، وكانت المصيبة بذلك داهية، ومما رفع رضي الله عنه وظيفة مغرم الماء وكان سقي الجنات يضطر فيه إلى مغرم للبراءة، ولصاحب الحوز والحراس، ويجري فيه من المصائب والخسارات والغبن ما لا يدخل تحت حصر. ومما رفع رضي الله عنه ما أجريت عليه ألقاب باطلة، ووظفت فيه مغارم مهلكة كالحبل والمطوى واللقب الذي يسمى باللسان البربري «ايبزغدن» وهو عبارة عمن خرج عن وطنه لفقره وحاجته، ولم يترك مستغلاً يطلب حيث كان من البلاد وإن كان قد فارق وطنه السنين الطائلة، وربما ينتهي العمل إلى طلب ذريته، فيؤخذ منه ما يوظف على كل واحد ممن هو في ذلك الوطن يستغل ما له، وهي أحدوثة عظيمة في الإسلام، وقعت فيها من الهموم والشناعات ما لا يحصى، وحتى أن الشخص يغرم مع أهل الموضع الذي رحل عنه والموضع الذي رحل إليه. وأما الحبل والمطوي فهما لقبان معروفان عندهم، وأسقط عن أحواز تلمسان وما اشتمل عليه الغرب الأوسط من الحوادث والظلامات، ما يضاعف به الله الحسنات ويرفع له الدرجات. ولما استولى على وطن إفريقية وبلاد الجريد، هد فيها المروس، ورفع المكوس وأسقط المغارم المحدثة والمظالم المبتدعة، بادية وحاضرة، وأسقط ربع المجابـي ورفع القطيع في بلاد الجريد، فجرى في ميزانه حتى الآن (والمنة لله). ولم يستطع أحد نقض عمله في ذلك. ومما كان يشتد فيه رضي الله عنه الاستظهار بالمناكر، على الجملة، والأمور التي يتوصل بها إلى أكل أموال الناس بالباطل. فكانت طائفة تدعى الغرباء، وهم العيون والجواسيس وخدام الطرق، يستعملون أشياء جرت بها عوائدهم واختلفت فيها طرقهم، فينتحلونها قصداً لأكل أموال الناس بالباطل. ثم لحق بهم فيها غيرهم، فيقامرون ويسخرون بالناس، في جزع لا يساوي دانقاً يحلونها بفضة أو ذهب ويدعون فيها منافع، يخدعون ضعفاء العقول بها. ويوظف عليهم بسبب ذلك وظائف وتؤخذ منهم عنه أموال. فرفع كله واشتد في عقوبة

فاعليه بأنواع العقوبات. فانمحى في أيامه أثره وانطوى ببركة إيالته خبره. ولهم في ذلك نوادر ظريفة وأخبار عجيبة، وعلى الجملة، فهذه آثار يحملها من يرويها ولا يعرف قدرها إلا من يدريها، وغاية ذلك أنه أسقط في ذلك أموالاً جمة ورفع برفعها مظالم عدة، فكم أدت المطالب بها إلى افتقار وكم هتكت فيها من حرمة أموال وأعراض وأبشار جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير جزائه ووضع البركة فيمن خلفه من الخلفاء أبنائه، ولا أبعد عن منازله من بقي من أوليائه وخواص خلصائه وأحبائه بمن الله وفضله.

[ابن مرزوق، مسند، ص 282-286]

80 ـــــــــ ■ الضرائب غير الشرعية بين الاحداث والحذف: نصيحة ابن عباد لعبد العزيز الأول المريني

وقد كنت طلبت منكم ـ في آخر كتاب كتبته لكم ـ أن تزيلوا مظالم الرتب التي أحدثت بطرق المسافرين، وأخبرناكم بما شاهدنا فيها من المفاسد المشينة لحسن دولتكم، والمكدرة صفاء حالكم، فلم تسعفوا طلبتنا بذلك، وشاء الله بقاءها.

وأنا ـ الآن ـ أجدد الرغبة إليكم في ذلك والإخبار بحالها، فاعلم ـ يا أمير المؤمنين ـ أن من تولى ذلك من أهل الفساد والشر قد انتشروا في بسيط الأرض، وقطعوا طرقاتها على المساكين والمستضعفين، وحازوا منهم من الأموال الحرام: بالنهب والغصب ما استعانوا به على ارتكاب الكبائر والفواحش، حيث لا تنالهم أحكامكم، وهم أراذل الناس وسفهاؤهم، لم يدينوا الله بدين ولا دخلوا في غمار المسلمين، ولو رأيتم ـ يا أمير المؤمنين ـ حالي معهم عند قدومي من فاس، وما كنت فيه من الذل والمسكنة بين أيديهم، وكنت أعدى عدو لكم ـ والعياذ بالله ـ لأدركتكم شفقة الإيمان على كل من يبتلي بها، حيث لا ناصر له ولا معين.

وما كنت ذكرته لكم في ذلك الكتاب: من أن السلطان أبا الحسن والدكم ـ رحمه الله ـ كان قد قطعها فهو شيء سمعته من بعض الناس صدقته فيه، لما اشتهر في زمانه من العدل والقيام بالحق وإزالة السنن القبيحة، وأردنا منكم الاقتداء به في ذلك، فلما بان خلاف ذلك، وصح أن السلطان أبا عنان ـ رحمه الله ـ فعل ذلك أنفنا لكم أن ينفرد (أخو) كم بمثل هذه المنقبة دونكم، وأن يحظى بفعل حسن يدفع به عن

أبيكم سوء عاقبة هذه السنة السيئة في دنياه وآخرته، بل أردت منكم أن تكونوا من أعظم حسناته التي يلجأ إليها يوم القيامة عند شدة فقرة وفاقته، وما أعظم هذا شرفاً لكم في دنياكم وأخراكم، حقق الله أمالنا في ذلك، بمنه وكرمه، فإن أردتم كمال الشرف والفخر، والفوز بأعالي درجات البر بوالدكم، وأن تدخلوا عليه في قبره من المسرات ما تقر به أعينكم، فاعرضوا سيره مدة خلافته على مقتضى الدين والشرع، فما رأيتم من ذلك موافقاً فأقروه، واحمدوا الله على توفيقه له لكم، وما رأيتموه مخالفاً فأزيلوه واستغفروا له ربكم، واحمدوا الله على ما الهمكم، ولا تحملوا حاله كله على الإصابة والموافقة فتتبعوه من غير نظر فيما ذكرناه، فإن العصمة من الخطأ مستحيلة على غير الأنبياء عليهم السلام. . .

(و) عليكم أن تتفقدوا عمالكم، وتعتقدوا ذلك من صالحات أعمالكم، ومما يجب لرعيتكم عليكم، فإنه قد ظهر منهم الغش وعدم النصيحة لكم ولرعيتكم، وحاصل أمرهم أنهم تمكنوا من الرعية كل التمكن، وأحدثوا سنناً غير مشروعة، (وفعلوا عليه مما يوافق أغراضهم) مما يكسبهم المال والجاه، وتوصلوا بذلك إلى جباية أموالهم والاستيلاء على رقابهم بالجبر والقهر، واشتروا رضى أنفسهم بسخط الله تعالى، ولم يراقبوا فيكم ولا فيهم الا ولاذمة، واصطلحوا على أن لا يصل إليكم مما يجبون إلا التافه اليسير، وصار في ذلك لهم ولأتباعهم وأشياعهم مأكل وتوسعات لم ينالوها بكد ولا تعب، وتوسلوا بها إلى معاصي الله تعالى وارتكاب مساخطه، غير مكترثين بكم، ولا حامدين ولا شاكرين لكم، وأعظم المصائب سؤال الله لكم عن ذلك، ودعاء المظلومين عليكم، وقد ورد في الحديث: إن دعوة المظلوم مجابة وإن كانت من كافر.

واعلم يا أمير المؤمنين: إن العدالة مشروطة في كل ولاية ـ كائنة ما كانت ـ لا بد للمستولي من الاتصاف بها: وهي أن يكون صادق اللسان، ظاهر الأمانة، عفيفاً عن المحارم، متوقياً للمئاثم، بعيداً من التهم والريب، مأموناً في الرضى والغضب، مستعملاً لخصال المروءة الدينية والدنياوية، فهذه الخصال هي التي ذكر العلماء أن باجتماعها تكون العدالة في الولاة، فإذا تكاملت فيهم صحت ولايتهم، ونفذت أحكامهم، وإن انخرم منها وصف لم تمض له ولاية، ولا ينفذ له حكم، فعليكم أن تولوا أعمالكم من اجتمعت فيه هذه الخصال، وملاك ذلك أن لا يتولى طالب لها ولا

راغب فيها، وهذا هو شأن أكثر عمال هذا الزمان، إلا ما عساكم تتداركونه فحسن.

فعليكم - يا أمير المؤمنين - أن تتصفحوا أحوالكم، وتتفقدوا عمالكم، وتكفوا أيديهم، وتستخرجوا منها ما خانوكم فيه: أنتم ومن تقدمكم، وذلك بأن تتعرفوا مقدار ما كان يملك أحدهم من المال قبل الولاية، وتأخذوا ما زاد عليه وتجعلوه في بيت مال المسلمين، كما كان يفعله الخلفاء الراشدون. . . ولا شك أنكم تملؤون بذلك بيوت الأموال، وتستغنون بذلك الاستغناء التام، عما أحدث من المظالم والمراسم والمغارم الضارة برعيتكم، والعائد ضررها عليكم في الدنيا والآخرة، أعاذكم الله من ذلك.

[مذكور في المدوبي، ورقات، ص 227-229]

81 ■ الطريق المخوفة

من تامدلت إلى بير الجمالين مرحلة، وهذه البير عمقها أربع قامات من انباط عبد الرحمن بن حبيب. ومنها إلى شعب ضيق، لا تسير فيه الإبل إلا متتابعة مرحلة. ثم تسير في جبل يسمى ازور ثلاثة أيام، وهو محجر تحفى فيه الإبل تنبت أم غيلان. ومن خرج فيه عن الطريق أصاب زبر حديد مثقبة لا تذيبه النار، وهذا الجبل كثير الثعابين، طوله مسيرة عشرة أيام من أول طريق سجلماسة إلى جانب البحر المحيط. ويقال أن جبل ازور متصل بجبل نفوسة من جبال اطرابلس، واحسبه جبل درن المذكور قبل هذا الذي ينبعث من تحته وادي درعة، فتسير في هذا الجبل ثلاثة أيام إلى ماء يسمى تندفس، ابار يحتفرها المسافرون فلا تلبث أن تنهار وتندفن. ثم تسير منه ثلاثة أيام، إلى بير كبير يقال لها وين ميلون. ثم تمشي ثلاثة أيام، في أرض سواء صحراء ربما وجد فيها الماء على صبا تحت الرمل من بقية الأمطار، إلى ماء نزر يقال له تازقي وتفسيره البيت. ثم تسير منه إلى بير انبطها عبد الرحمن بن حبيب، واحتفرها في حجر ادعج صلب طولها أربع قامات مرحلة. ثم تسير منها إلى بير يقال لها ويطونان، وهي كبيرة لا تنزف، ماؤها زعاق يسهل شاربيه من الناس والانعام، وهي من عمل عبد الرحمن بن حبيب أيضاً طولها ثلاث قامات ثلاث مراحل. ثم تمشي منه أربع مراحل، إلى موضع يقال له اوكازنت، أرض زرقاء ينبط أهل الرفاق فيها الماء على ذراعين وثلاث. ثم تمشي في مجابة جبال رمل معترضة لا ماء فيها، وهو أصعب موضع بطريق أودغست أربعة أيام، إلى موضع يقال له وانزمين، ابار قريبة الرشا، فيها

العذب والشريب، وعليه جبل طويل صعب كثير الوحوش. وبهذا الماء يجتمع جميع طرق بلاد السودان، وهو موضع مخوف تغير فيه لمطة وجزولة على الرفاق، ويتخذونه مرصداً لهم لعلمهم بافضاء الطرق إليه وحاجة الناس إلى الماء فيه.

[البكري، مسالك، ص 156-157]

الفصل الرابع

مسألة أمن السبل

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أولئك المسببين لتلك القبائح الساعين في صد ما يرضاه الله تعالى من المصالح، وتعرفونا بهم بعد تثقيفهم لنشرد بهم من خلفهم، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم، وقد استخرنا الله في سد تلك الذريعة، وصد تلك الأفعال الشنيعة، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر، وتعلمونا بنبأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر، دون أن تقيموا الحد عليه، أو تبادروا بالعقاب إليه، ولا سبيل لكم إلى قتل أحد من كل من هو في بلاد الموحدين وأنظارهم، ومن هو معهم وداخل في مضمارهم، وكل من ترون أنه يستوجب القتل، ممن يريد المكر في أمر الله والختل، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه، لينفذ فيه من قبلنا ما يوجبه الحق ويقتضيه، ونمضي في عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه، فإياكم من مخالفة أمرنا هذا في قتل أحد ممن ذكرناه كائناً من كان، كبر ذنبه عندكم أو هان، ولتبادروا إلى إعلامنا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه لنقابله بما نراه، ونجري الحق فيه مجراه.

وإنه أعلمنا بأن من يرضى من تلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه، ولا يبالي أحسن الفعل فعله أم قبيحه، يبتاع المرأة ويبيعها دون استبراء، ويعبث في ذلك بكل إقدام على الله تعالى واجتراء، ولا يتحفظ من مواقعة الزنا المحض، ومخالفة الواجب مع الفرض، وإن في ذلك من اطراح ما أمر الله تعالى به من اتباع الشرع، وإفساد

(*) هذا مقتطف آخر من «رسالة الفصول» (انظر نص رقم 78) ولا بأس من الإشارة إلى أن عبد المومن يحث طلبة الموحدين على أن يرسلوا نسخاً منها إلى الحواضر والبوادي.

الأصل من السنة والفرع، ما لا يحل سماعه، ولا يستقر بنفس مؤمنة استطلاعه. فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً منهن أو يبيع، حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ لئلا يذهب الحق في ذلك ويضيع. ولتقدموا للنظر في أسواقهن من ترضون دينه وأمانته، وتتحققون ثقته وصيانته. فمن أبيح لـه البيع والابتيـاع أحضره الأمين المذكور ليرتفع بشهادته الشك والنزاع، وتجري السنة مجراها ويمتثل الأمر المطاع. وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء في جميع من تغنمونه منهن في تلك الأرجاء، حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته، وتعلمونا من ذلك بجليته. لنرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم، ويجري إليه اقتصادكم.

والله الله في البحث على الخمور! وتقديم النظر في أمرها فهو من أهم الأمور، فإنها مفتاح الشرور، ورأس الكبائر والفجور، وهي رابطة أهـل الجـرم، وجـامعة أشتات الظلم، قال النبـي صلى الله وملائكته الكرام عليـه وسلم: «الخمر جمـاع الإثم»، فخذوا في طلبها في المواطن المتهمة بشأنها، واجتهدوا في إراقتها وكسر دنانها، واعمدوا إلى السبب الذي يؤدي إلى التمكن منها فارعوه والحظوه، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه، وقدموا أمناء متخيرين للتطوف على مواضع الترتيب، يكون بالمحافظة على ذلك محل الكاليء الرقيب ولا يكن منهم إلا من يفرق بين الحلال والحرام ويميز، ويعرف ما يجوز شربه وما لا يجوز، ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرُّب واعتصاره وخذوهم بتوقف جِدِّهم على ذلك واقتصاره، فما حل منه أباحوه، وما كان غير ذلك قطعوه أصلاً وفرعاً وأراقوه. «الحلال بين والحرام بين»، ولقضايا الشرع نظام؛ قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم: «ما أسكر كثيره فالجرعة منه حرام».

وإن ممن يسعى في نوع من أنواع الفساد، ويستصحب الإضرار بالمسلمين في الاصدار والإيراد، هؤلاء الراقصين الذين يردون بالكتب ويصدرون، ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون، فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر في كلفهم، ويلزموونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم، وهذا فعل كل فرقة منهم في سيرها، وسوء رأيهم بذلـك في المخازن وغيرها؛ وإن من جملة ما حكي عنهم أنهم يتألفون في الطرق جموعاً، ويحلون بأفنية النـاس حلولاً شنيعاً، يكلفـونهم مؤناتهم تكليف المجـرم، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم، حتى إنهم لا يرضون في ضيـافاتهم إلا بـأسمن

الجزر، وناهيكم بهذا الاجتراع العظيم الضرر؛ فسارعوا ـ وفقكم الله تعالى ـ إلى حسم هذه العلة من أصلها، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها، وتخيروا لرسائلكم أرسالاً، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالاً، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في المجيء والانصراف، ويقطع شأنهم عن التكليف والإلحاف، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد، معلومة الأمد، لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم، ويوزعوها على مسافات مراحلهم، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور، ونستعيذ به سبحانه من الْحَوْر.

وكذلك ذكر لنا ـ وفقكم الله تعالى ـ من التحكم في الأموال، وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال، أن أولئك الذين ذكرت خدعهم، ووصفت غرضهم الذميم ومنزعهم، يفعلون في أموال الناس ما تقدم ذكره، وشرح مكره، وتمتد أيديهم إلى المخازن هنالك فيعيثون فيها ويتحكمون، ويجرؤون في التعدي عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون، فاتقوا الله تعالى فيها، فإنها أمواله المخزونة في أرضه، وبادروا إلى كلف كل معتد وقبضه، ولا سبيل لكم أن تنفدوا منها قليلاً ولا كثيراً إلا بعد استئذاننا وتعريفنا بالدقيق والجليل مما هنالك، وهذا أمر منا لكم ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة، أمراً دائماً لازماً، سننته بالاستمرار مستظلة، وصحته بفضل الله لا تدخلها تعلة.

وقد خاطبنا بمثل ما خاطبناكم به جميع الطلبة والموحدين وكافة البلاد التي هي بالدعوة المهدية معمورة، وبكلمة الإيمان مشرقة منيرة، فأمرنا بجميع فصول كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل، وفي كافة أقطار الموحدين نافذ عامل، فمن خالفه بوجه من وجوه الخلاف فقد تبين عناده، وساء في العاجل والآجل مآله ومعاده، ومن لم يمتثله بواجب الامتثال، ويكف يده عما رسمناه في كافة الأحوال، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه، واستقبل من ارتكاب النهي ما يصده الانتقام به عن سوء منحاه، فاستصحبوا حدنا هذا استصحاباً مؤبداً، واتخذوه في كافة أحوالكم مستنداً ومعتمداً، وعلى كل من إلى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة في سلك التوحيد، الآخذة بالمذهب الرشيد، عون الأمير ـ أيده الله تعالى ـ على بسط العدل، وإفاضته على الكل، ورفع لعبء ثقل وكَلّ: أن يسلكوا في جميع تصرفاتهم سبيل الاستقامة،

ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة على ذلك والاستدامة. ويتجافوا عن مواقع الظلم فالظلم ظلمات يوم القيامة، وينقادوا للواجبات بداراً إليها وإسراعاً، ويكونوا في التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تألفاً واجتماعاً.

ولما كان هذا الأمر عندنا ـ وفقكم الله تعالى ـ أهم أمر وأوجبه، وأحق ما أدناه الحق وقربه، وكان اهتمامنا به قد جعله على كل حالة مقدماً، وأنفذه بأمر الله تعالى إنفاذاً ملتزماً، رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا، وها هي قد رفعت الإشكال رفعاً بيناً، وأرتكم فرط اهتبالنا حقاً مبيناً، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمسارعة، وصلوا ابتداء شأنها بالمواصلة له وبالمتابعة، وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع من في تلكم البلاد من الطلبة والعمال، وكافة المقدمين للأعمال، ولا تقدموا أمراً من الأمور على إنقاذ جميع ما تضمنه، والاعتمال بكل ما شرحه وبينه، ولا تشتغلوا بشغل قبل الاشتغال بمعانيه، وبما أمركم به على قواعده ومبانيه، ومخاطبتنا بما يكون منكم في تلقيه، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه، واقرأوه على الكافة أعالي المنابر، واستحضروا له وفود القبائل من البوادي والحواضر، وأسمعوا به إفصاحاً وإعلاناً، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووحداناً، وأحسنوا إيصال أغراضه إليهم، فإن الله تعالى يجزي الإحسان إحساناً.

فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير وبلغتم حجته بواجب التبليغ والتقرير، فاكتبوا منه نسخاً إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النظر، وكل كورة من تلك الكور، وأكدوا عليهم فيما أكدنا عليكم فيه، من تقديم العمل فيه على كل الوجوه، وامتثال مضمنه على ما يحبه الله تعالى ويرتضيه، وحذروهم من التعرض لمخالفته فلا عذر لمن لا يقصده على الفور ويأتيه، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم.

فانظروا هذا ـ وفقكم الله تعالى ـ نظر أولي الألباب. ولتسعوا جهدكم في رفع ذلك العمل المستراب، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه على موجب الكتاب.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

[ابن القطان، نظم، ص 196-203]

83 ■ الخفارة (*)

ثم وصلنا إلى تلمسان وكانت نيتي أن أقيم بها مدة حتى أجد صحبة قوية أقطع معها المفازة التي في طريقها إلى رباط تازا. وهي مقطعة موحشة لا تخلو من قطاع الطريق البتة. وهم بها أشد خلق الله ضرراً وأكثرهم جرأة، وأقلهم حياء ومروؤة، لا يستقلون القليل، ولا يعفون عن ابن السبيل. ليس في أصناف القطاع أخس منهم همماً، ولا أوضع منهم نفوساً ولا أكثر منهم إقداماً على كل صالح وطالح لا ينبغي لمسلم أن يغرر بلقائهم. فلما وقفنا بباب تلمسان صادفنا العادة الكريمة من لطف المولى سبحانه فألفينا قافلة تخرج وهي كثيرة تزيد على الألف وقال لنا قائل على الباب أن لهم في محاولة الخروج نحواً من ثلاثة أشهر حتى تسنى لهم بخفارة على أداء خفارة. فدخلنا إلى البلد وخرجنا ساعة دخولنا إلى زيارة قبور الصالحين بالموضع المعروف بالعباد، وزرت قبر الشيخ الصالح ءاية زمانه أبـي مدين رضي الله عنه. ثم رجعت إلى البلد فبتنا به حتى خرجنا من الغد وأدركنا القافلة بوجدة، وهما مدينتان بينهما مسافة قليلة في بسيط مستو وقد دثرتا فلم يبق منهما إلا رسوم حائلة وأطلال ماثلة والقديمة أشدهما دثوراً وبهما عمارة قليلة. فرحلنا منها مع القافلة حتى وصلنا إلى رباط تازا وذلك في آخر رمضان.

[العبدري، رحلة، ص 278-279]

84 ■ تجارة السودان: الخطر والربح

التاجر البصير بالتجارة، لا ينقل من السلع، إلا ما تعم الحاجة إليه، من الغني والفقير والسلطان والسوقة؛ إذ في ذلك نفاق سلعته. وأما إذا اختص نقله بما يحتاج إليه البعض فقط، فقد يتعذر نفاق سلعته حينئذٍ، باعواز الشراء من ذلك البعض، لعارض من العوارض؛ فتكسد سوقه وتفسد أرباحه. وكذلك إذا نقل السلعة المحتاج إليها فإنما ينقل الوسط من صنفها؛ فإن الغالي من كل صنف من السلع إنما يختص به أهل الثروة وحاشية الدولة، وهم الأقل. وإنما يكون الناس أسوة في الحاجة إلى الوسط من كل صنف؛ فليتحر ذلك جهده، ففيه نفاق سلعته أو كسادها. وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة، أو شدة الخطر في الطرقات، يكون أكثر فائدة

(*) كان المؤلف في طريق عودته من الحج.

للتجـار وأعظم أرباحاً وأكفل بحوالة الأسواق. لأن السلع المنقولة حينئذٍ تكون قليلة معوزة، لبعد مكانها أو شدة الغرر في طريقها؛ فيقل حاملوها ويعز وجودها. وإذا قلّت وعزّت غلت أثمانها. وأما إذا كان البلد قريب المسافة، والطريق سابق بالأمن؛ فـإنه حينئذٍ يكثر ناقلوها، فتكثر وترخص أثمانها. ولهذا تجد التجار الذين يولعون بالدخول إلى بلاد السودان أرفـه الناس وأكثـرهم أموالاً، لبعـد طريقهم ومشقتـه، واعتراض المفازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش. لا يوجد فيها الماء إلا في أماكن معلومة، يهتدي إليها أدلاء الركبان؛ فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده إلا الأقل من الناس. فتجد سلع بلاد السودان قليلة لدينا، فتختص بالغلاء، وكذلك سلعنا لديهم. فتعظم بضـائع التجـار من تناقلهـا ويسرع إليهم الغِنى والثـروة من أجل ذلـك. وكـذلـك المسافرون من بلادنا إلى المشـرق، لبعد الشقـة أيضاً. وأمـا المترددون في الأفق الواحد، ما بين أمصاره وبلدانه؛ ففائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة، لكثرة السلع وكثرة ناقليها. «والله هو الرزاق ذو القوة المتين».

[ابن خلدون، عبر، ج 2، ص 706-707]

الباب الرابع

البنية الاجتماعية

الفصل الأول

الأعيان

يكنى أبا الحسن، وأدركته، ورأيته، وكتب للملوك من بني مرين بحضرتهم.

وكان أبوه عبد الله هو الذي نجم في بني أبي مدين في خدمة الملوك من بني مرين. قلدوه الحجابة ورياسة الكتاب، وكان أحد الموصوفين بالكرم الفائق، كانت عطاياه هُنَيدات.

أخبرني بفاس غير واحد ممن رآه أن عطاياه كانت من خمسين دنياراً ذهباً، إلى مائة دينار مثلها، إلى أكثر من ذلك.

ومولده بقصر كتامة، ونشأ بمكناسة الزيتون، وبها قرأ القرآن وتفقّه؛ فتعلق بخطة التوثيق، وسكنها مدة، ثم ارتحل عنها إلى فاس فأقام بها موثقاً بسماط شهودها، وكان أصل قربه من دار السلطان أن الوزير أبا علي عمر بن الوزير السعود بن خرباش الحشمي طلب من قاضي مكناسة في حينه كاتباً لنفسه يكون حسن الخط، فعرفه بعبدالله هذا؛ فاستكتبه. وانتقل بعد وفاة الوزير عمر بن السعود لقراءة الحزب بدار أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. ثم تعلق بخدمة السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق على يد... من كتاب الحضرة السلطانية اليعقوبية على يد صاحب قلمها الأعلى أبي عبد الله محمد الكناني. فلما توفي الكناني قدمه السلطان أبو يوسف للعلامة فكان يُعلم.

فمات السلطان أبو يوسف، وولي بعده السلطان أبو يعقوب يوسف فبقي كاتباً كما كان، إلى أن استبد بأمور أبي يعقوب كلها، وقلده الحجابة ورياسة الكتاب، ولم

(*) ترجمة الفقيه الكاتب محمد بن عبد الله بن أبي مدين شعيب العثماني.

يزل كذلك إلى أن توفي أبو يعقوب، وولي بعده حفيده ابن ابنه، أبو ثابت عامر. فبقي على ذلك إلى أن مات أبو ثابت وولي أخوه لأبيه أبو الربيع سليمان، فبقي على ذلك إلى أن قتله أبو الربيع في عام عشرة وسبع مئة.

وأبو مدين شعيب والد عبد الله كان منخرطـاً في سلك المتصلحين، فصيح اللسان، وكان يصلي في بعض الأوقات بالسلطان أبـي يوسف يعقوب بن عبد الحق. وليس هو **أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الإشبيلي الأندلسي** ولي الله تعالى، الذي دفن **بالعُبّاد** من مدينة تلمسان؛ وإنما اتفق الاسمان.

وهو من بني عثمان، قبيلة، يسكنون بقصر كُتامة. وأبو الحسن هذا كتب في حضرة أمير المسلمين أبـي الحسن ملك المغرب المريني. وكتب أيضاً في حضرة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبـي عنان.

حاله ـ رحمه الله ـ:

كان قد تابع والده في هديه، ولم يتخطه في أمـره ونهيه. وحـاكاه في بـذل العطايا، ولم يحد عن تلك السَّجايـا. وكان للقـرآن حافـظاً، وعلى أوقات قـراءته محافظاً. لا تراه إلا تالياً، كما كان للفواحش قالياً. وأبوه عبد الله هـو الذي أشـاد المعالي في قومه، وأيقظ لهم جفن الفخار من نومه. وساد بما أشاد من المفاخر، ونشر بعطائه رداء السيادة الفاخر. أعطى وما أبطأ، وأصاب في ذلك وما أخطأ. وسطا في حجابته بالظلام، ورفع في رياسته من وضعته الأيام. وكان مكرماً بالشرفاء، رفيقاً بالضعفاء. عظيم الصدقات، حليماً في السكون والحركات. كثير التواضع، قليـل التصانع.

[ابن الاحمر، **نثير**، ص 255-259]

أوليتـه

نقلت من خطه، قال، وكان الذي اتخذها من سلفنا قراراً بعد أن كانت لمن قبله مراراً، عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقري، صاحب أبي مَدْيَنْ، الذي دعا له ولذريته، بما ظهر فيهم من قبول وتبيّن. وهو أبي الخامس فأنا محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن، وكان هذا الشيخ عُروى الصلاة، حتى أنه ربما امتحن بغير شيء. فلم يؤنس منه التفات، ولا استشعر منه شعور. ويقال إن هذا الحضور، مما أدركه من مقامات شيخه أبي مدين. ثم اشتهرت ذريته على ما ذكر من طبقاتهم بالتجارة، فمهدوا طريق الصحراء بحفر الآبار، وتأمين التجار، واتخذوا طبل الرحيل، وراية التقدم عند المسير. وكان ولد يحيى، الذي كان أحدهم أبو بكر، خمسة رجال، فعقدوا الشركة بينهم فيما ملكوه، وفيما يملكونه على السواء بينهم والاعتدال، وكان أبو بكر ومحمد وهما أرومَتا نسبي من جميع جهات الأم والأب بتلمسان، وعبد الرحمن وهو شقيقهما الأكبر بسجلماسة، وعبد الواحد وعلي، وهما شقيقاهم الصغيران، بأي والاتن فاتخذوا هذه الأقطار والحوايط والديار، فتزوجوا النساء، واستولدوا الإماء. وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع. ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر، والسجلماسي كلسان الميزان يعرفهما بقدر الرجحان والخسران، ويكاتبهما بأحوال التجار، وأخبار البلدان، حتى اتسعت أموالهم، وارتفعت في الفخامة أحوالهم، ولما افتتح التكرور كورة أي والاتن وأعمالها، أصيبت أموالهم. فيما أصيب من أموالها، بعد أن جمع من كان بها منهم إلى نفسه الرجال، ونصب دون ماله القتال. ثم اتصل بملكهم فأكرم مثواه، ومكّنه من التجارة بجميع بلاده، وخاطبه بالصديق الأحب، والخلاصة الأقرب. ثم صار يكاتب مَنْ بتلمسان، يستقضي منهم مآربه، فيخاطبه بمثل تلك المخاطبة، وعندي من كتبه وكتب الملوك بالمغرب، ما ينبىء عن ذلك. فلما استوثقوا من الملوك، تذللت لهم الأرض للسلوك، فخرجت أموالهم عن الحد، وكادت تفوق الحصر والعد، لأن بلاد الصحراء، قبل أن يدخلها

(*) يرد النص ضمن ترجمة القاضي محمد بن محمد القرشي المقري.

أهل مصر كانت تجلب لها من المغرب ما لا بال له من السلع، فيُعاوض عنه بما له بال من الثمن. ثم قال أبو مدين «الدنيا ضم جنب أبـي حمو، وشمل ثوباه. كان يقول لولا الشناعة لم أزل في بلادي تاجراً من غير تجار الصحراء الذين يذهبون بخبيث السلع، ويأتون بالتبر الذي كل أمر الدنيا له تبع، ومن سواهم يحمل منها الذهب، ويأتي إليها بما يضمحل عن قريب ويذهب، إلى ما يغير من العوايد، ويجر السفهاء إلى المفاسد».

ولما هلك هؤلاء الأشياخ، جعل أبناؤهم ينفقون مما تركوا لهم ولم يقوموا بأمر التثمير قيامهم، وصادفوا توالي الفتن، ولم يسلموا من جور السلطان، فلم تزل حالهم في نقصان إلى هذا الزمان فها أنا ذا لم أدرك في ذلك إلا أثر نعمة اتخذنا فصوله عيشاً، وأصوله حرمة. ومن جملة ذلك خزانة كبيرة من الكتب، وأسباب كثيرة تعين على الطلب، فتفرغت بحول الله عز وجل للقراءة، فاستوعبت أهل البلد لقاء، وأخذت عن بعضهم عرضاً وإلقاءً، سواء المقيم القاطن والوارد والظاعن.

[ابن الخطيب، إحاطة، ج 2، ص 191-194]

87 ■ بيوتات العلم: العبادسة بمكناس

وأظن أني وقفت في بعض التواريخ على أن بني عبدوس من جملة قرى مكناسة، كبني برنوس، والمفهوم من ذلك أن أهلها من جملة قبائل مكناسة، وإليهم ينسب العبادسة من بني معطى أعقاب الشيخ الفقيه المشاور المدرس أبي عمران موسى العبدوسي، فمنهم ولده الفقيه المحدث الحافظ أبو القاسم، وولده أيضاً الفقيه أبو عبد الله، وحفيده الفقيه المحدث الحجة شيخ شيوخنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى بن معطى العبدوسي، وهم بيت كبير من بيوت العلم، أقام فيهم العلم ورياسته دهراً طويلاً حتى في نسائهم، وءاخر علمائهم أم هانى العبدوسية أخت أبي محمد المذكور.

[ابن غازي، روض، ص 32]

88 ■ بيوتات التصوف: بيت الشيخ أبي محمد صالح بآسفي

ووردنا مدينة آسفى وقد تمكن النهار، فلقينا موكب أرباب الخطط بارين مُعدين.

ولما شارفنا، ركب إلينا صر دو كها أحمد بن يوسف حفيد الوليّ أبـي محمد صالح، القائم في ظلّ صيته، وأثير الناس من أجله، رجل آدم اللون، قد تعجل الوَخْط منه، ذقن كثّ ذو تيفور، جالس السلطان، وقاد ركب الحجاز، وجر ببلده دنيا عريضة، واقتعد غارب غنى جم، يفد على باب السلطان في سبيل دالة بقديمه، ويقفل إلى وطنه مجدد الصكوك مستجاد الخلعة.

واضطَبَنَ من ابن عمه الخطيب بالبلدة، شاحباً صامتاً مهمهماً بذكر، منتبذاً عند الأكل إشعاراً بالإمساك، أومأ مع ذلك، زعموا، إلى دنيا عريضـة كابن عمـه وشُحٍّ مطاع، فرحب الكل وأطرأ اللقاء. وجئنا إلى رباط الشيخ أبي محمد وهو من المشاهد الحافلة والمآلف الجامعة. فضاؤه رحب مرصوف بحجر الكذان يدور بـه، سقيف نظيف ذو أبواب تفضي إلى زوايا ومدافن، وبطوله عن يمين الوالج مسجد الصلاة وتربة الشيخ في بيت عُمد سمكه لانفساح عرضه بقايم من الخشب، وقبر الشيخ قبليه عن يمين الداخل إليه، قد اتخذ له حوض من الخشب من الرفيع أكسبته الأيام دهمه، فتخاله منحوتاً من الألْوَة قد أملست من الاستلام حافته، وسوى من نـظيف الرمـل سبخه، وبإزائه قبور شبيهة به في الشكل لولده وحفدته، تتخللها الحصر النظيفة، فقضى الغرض من القراءة والدعاء، وحضر الفقهاء والطلبة والصوفية وقد استعرضهم أبو العباس طائفتين ورتبهم للسلام علينا غابطاً إياهم مطرباً مؤنساً، فدعوا وأحملوا، وعرض علينا طعام الشيخ أبـي محمد رحمه الله، وقرى ضيفه الجاري عليه من بيت المال لنظر حافده المذكور محكَّماً في قلِّه وكثره، فجلب خوان بهى اشتمل قوره على كل غضارة أثيرة لا تتخلف عن طعام ولا شراب.

وانصرفنا إلى المحل المعين للنزول. وهذا البلد فسيح طيب الهواء كريم التربة خصيب الجناب، وأهله أولو خيريَّة وجنوح إلى الصلاح، وهو لبنة التمام للمسورات بالمغرب، ليس وراءها مدينة جامعة، ولا محلة مسورة، ودونه أمم تتصل بالسوس الأقصى إلى تخوم الحبشة من وراء الصحراء.

ومن ساعة المامنا انزوى عنا الشيخ أبو العباس صردوك، للهوه، واشتغل زعموا بعقد نكاح على بكر يلاعبها وتلاعبه، لم يقسم الله للضيف من مأدبتها بحظ، وشح بإيناسه وتردده، فحدسنا أن ذلك إبقاء على نفسه لما تكشف المجالسة من حال يمد لها أبو حنيفة رجله. وهممت أثناء طريقي أن أخاطبه بسعوط افتتحته بأبيات مطلعها:

إذا لم تهـذبـك الأبــوة والحـج   فأنت على فوت الجنى ثمر فج

ثم تصـدقت على حلم الشيخ بجهله، وحـرمت صيد آبـده في حرم محله، أصلحنا الله وإياه.

[ابن الخطيب، مشاهدات، ص 145-148]

89 ■ الشرفاء: الصقليون بسبتة(*)

وكان شيخنا القاضي أبو الحسن المذكور يثني عليه، ويعظِّمـه تعظيمـاً يليق بمثله، ويقول في أثناء حديثه: فعل أبو العباس الشريف صاحب سبتة كذا، وصنع كذا. ولم تزل حالته هذه، رحمة الله عليه، إلى أن أسنَّ وأُقعد، فلزم منزله ثلاث سنين، من غير أن ينقص ذلك من منصبه شيئاً، ولا من انتفاع الناس به؛ وكان أبيض اللون، حسن الهيئة والملبس، يخضب بالحنَّاء؛ وتوفي في زمـانته وقـد نيَّف على الثمانين، عام ستة وسبعين وسبع مئة، وله الآن قرابة بمدينة فاس بقيد الحياة».

وكان السلطان المرحوم أبو عنان فارس، ابن السلطان أبـي الحسن المـريني يجل هذا الشريف، ويعترف له بالفضل، ويعطيه العطاء الجزل، وكان يستدعيه كل سنة إلى حضرته فاس، لحضور المولد السعيد، الذي سنَّه ببـلاد المغرب الشيـخ أبو العباس العزفي، وتلك السُّنَّة باقية إلى الآن بحسن نيته، واعتنائه بالجناب العلي، نفعه الله بذلك، ويخلع عليه الخلع الملوكية، ويعد له دنياراً مسكوكاً يصنع بمدينة مراكش، زنته مئة دينار ذهباً، يدفع له ذلك مع جائزته، إلى غير ذلك مما كان يتحفه به، رحمه الله، ويصحبه في وجهته تلك من الضعفاء والتجار مـا لا يحصى كثرة، ويتولى هو الإنفاق على الجميع من ماله، ويرفع عنهم اللوازم المخزنية، فكان التجار لأجل ذلك يرصدون وقت سفره وقفوله. وقدمه السلطان أبو عنان المذكور ناظراً على بلده سبتة، وأمر صاحب قصبتها ألا يقطع أمراً إلا بمشورته، فكان العمال يخافونه ويشاورونه، فإذا رأى من أحدهم خروجاً عن العادة، أو حيفاً على الرعية، كتب إلى السلطان في شأنه، فيعزله من فوره، ويعوضه بغيره. وكـان يقول للسلطان: لعلك تحسبني خديماً، لست كـذلك، وإنمـا نحن معشر أهـل البيت شفعاء في الـدنيا، وشفعاء في الآخرة. فكان أهل سبتة في أيامه في عيش هنيّ، ونعمة شاملة، بقي على

(*) يأتي المقري هنا بنص من كتاب، الكواكب الوقادة في ذكرى من دُفن بسبتة من العلماء والقادة، وهو في حُكم المفقود. وقد عاصر المؤلف الشريف أبا العباس الحسيني المذكور في النص.

هذه الحالة المرضية مدة عشرين سنة. وله بسبتة آثار تحكي الآثار العزفية، كالرياض الأعظم، الذي أمام باب الميناء الأسفل الذي تأنق في بنيانه وأبدع صنعته، وجلب إليه الماء بالدواليب حتى أوصله إلى القبة ذات الأعمدة؛ وكالرياض الذي بالصفَّارين، حيث كان قعوده مع خواص الناس وعامتهم.

قال صاحب الكواكب الوقّادة:

«سمعت أحد كتابه الخاص به، الملازم له ليلاً ونهاراً، مع مرور الأيام والسنين، يقول: ما أمرني قط سيدي ومولاي الشريف بكَتب شيء مخالف للشرع، بل في رفع المظالم، وإنهاء الشفاعات، وتوجيه الأمانات، وما في معنى ذلك، مما ندب إليه الشرع، وحض عليه، ووعد بالثواب على فعله. وطالما سمعت الكاتب المذكور يقسم على ذلك، نفعه الله به». انتهى.

وكان الشريف المذكور يصنع أنواع المطاعم الرفيعة، ويتبسط في ألوانها، ويطعمها الغني والفقير، والقوي والضعيف، ممن يحضر مجلسه أو يأتي إليه، وبالجملة فهو قطب الجود الذي عليه المدار، وإمام الأدب الذي لا يجاريه الرضي ولا مِهيار.

وكان عطاء هذا السيد الشريف المرسوم له من بيت المال، ثلاثين ديناراً من الذهب العين في رأس كل شهر، وهو خاتمة الشرفاء العظام بمدينة سبتة. ولهؤلاء الشرفاء بمدينة سبتة نحو الثلاثين قبراً، في روضتهم المنسوبة إليهم، بالجانب الشرقي من رابطة الفصال. وهؤلاء الشرفاء من ذرية أبي الطاهر الذي خرج من جزيرة صقلية، وكانت له بسبتة وجاهة وسيادة، وجلالة ومجاده؛ لمكان بيتهم الشريف، ونسبهم العالي المنيف؛ ما منهم واحد إلا غذاه العلم بلبانه، والأدب ببيانه. وولي منهم قضاء بلدهم سبتة رجلان، لم يطلع مثلهما الملوان؛ تُقًى وعلماً، وأناة وحِلماً؛ أولهما القاضي أبو الشرف رفيع، والثاني ابنه القاضي أبو الحسن علي. وكم نشأ عن هذا الأصل الطاهر من جهبذ نحرير، وعالم ماهر؛ وسخي جواد، له إلى الإعطاء ارتياح وإلى الكرم استناد؛ وناهيك بخاتمتهم أبي العباس المذكور.

وكان فائد مَضْرِب الميناء لهذا الشريف أبي العباس الحسيني، دون أن يشركه غيره؛ وكان له بمضرب أويات يوم يضرب فيه، ويومان لبيت المال، وكانت عادة عامل المضارب، الناظر في فوائدها وما تحتاج إليه من نفقة وآلة، أن يأمر رجاله وأعوانه، حين يقعد النَّواتيّة الكيس، بالوقوف إليه، والدفاع عنه، بعد أن يحضر الشهود، خفراً

وضبطاً لما يخصل من فائد المضرب المالي في يوميه؛ فإذا كان يوم السيد الشريف يأمر رجاله وخدامه وأعلاجه الإسلاميين، بإباحة المضرب للمساكين، وتفريق الحوت على من لا يصل إليه، ممن يحضر متنزهاً، إما لحفظ مروءة، وإما لغير ذلك. ولا يزال الناظر من قبله، وهو القائد فارح أحد أعلاجه، واقفاً على حصانه، وقد أحاطت به رجاله، إلى أن يرضى كل من يحضر، وما فضل عن ذلك فهو له. وأما السيد الشريف فلا يحضر، إذ همته أرفع من ذلك، وقدره أعظم، ومكانته بسبتة مكانته، بحيث يأتي إليه في الموضع الذي أعده لجلوسه برياضه الذي بالصفارين صبيحة كل يوم صاحب القصبة، كائناً من كان، مسلماً عليه، ثم ينصرف، ثم يأتي الوالي على قبض الجباية مسلماً، ثم ينصرف بعد تقبيل قدمه، ثم يأتي صاحب الشرطة، وكذا جميع أمراء سبتة، إلا القاضي، لمكان خطته، فيعامل كلاً بما يستحق من إكرام وإهانة، وإغلاظ ومجاملة، فلا يتخلف أحد عن غرضه، ولا يصدر إلا عن رأيه ونظره. وهذا كله مع النصيحة للمسلمين، وجلب المنفعة لهم بالقول والفعل، وإطعام الطعام الذي لا يقدر عليه الأمير فمن دونه، ورفع المظالم، ومنح الجاه، إلى غير ذلك، نفعه الله. فكان من حكمة الله عز وجل وبركة أهل البيت، وفضل الجود والكرم ومكارم الأخلاق، وإيصال المنفعة للعباد، أن يخرج في اليوم الذي له بالمضرب من الحوت، أي نوع كان من الجاري، أضعاف ما يخرج في اليومين، ويحصل له من الفائد أكثر مما يحصل لمتولي النظر فيهما، فيتصل بيده من فائد يومه خمس مئة الدينار وسبع المئة، وربما يزيد وينقص؛ وقد انتهى في بعض الأحيان إلى ألفي دينار في اليوم، حسبما يسنيه الله عز وجل؛ هذا بعد العادة التي عودها نفسه النفيسة، من الإيثار والبذل، للسري والنذل. ولم تكن له همة، رحمه الله، في احتكار المال وجمعه، بل يصرف ذلك كله في إطعام الطعام، الخاص والعام، وفي تشييد البنيان، والإنفاق على الفعلة والصناع والخدام، وآثاره ومصانعه بداخل سبتة وخارجها شاهدة بذلك مدى الأيام؛ وكم في أثناء هذاالتصرف من مؤاساة فقير، وإعانة ضعيف، وإغاثة ملهوف، برفع لازم أو وظيف، حسبما هو معلوم معروف منقول.

وكان ملوك بني مرين يعتنون به أتم اعتناء، ويبادرون إلى موافقة أغراضه، وقبول شفاعته، وما كان يتلقاه حين وروده على حضرتهم فاس إلا الملك بنفسه، إلى غير ذلك من مناقبه رضي الله عنه، ونفعنا به، وبسلفه الطاهر.

[المقري، أزهار، ج 1، ص 38-44]

الفصل الثاني

علامات النفوذ الاجتماعي

90 ■ الأحياء

وعدد الأزقة مئتا زقاق وخمسون زقاقاً سوى ما دثر منها، وهي أزقة الخندق الكبير الذي كان يعرف في القديم بخندق أيمن ويعرف اليوم بخندق الدجاج وجلها يشتمل على أزقة كثيرة من أشرفها الزقاق الأعظم زقاق ابن عيسى وهو القاضي محمد التميمي وقد تقدم ذكره، وهو زقاق الأكابر عند أهل سبتة، وبه يضربون المثل بينهم، متسع الساحة يحتوي على أزقة ودروب وقصور ملوكية ومصانع هائلة، وهو فاصل بين شطري المدينة، وفيه أربعة وعشرون حماماً، حمامان مبرزان، وباقي العدد بدور السادة من الشرفاء وبني العزفي وغيرهم من أعلام الفقهاء وأكابر التجار، وجل هذه الأزقة معروفة بأسماء من سكنها من العلماء كزقاق ابن عيسى هذا، وزقاق عياض، وهو القاضي، وزقاق أبي عبد الله القاضي الزاهد من أشياخ القاضي عياض وقد تقدم ذكره، وزقاق ابن يربوع، وزقاق العزفي هو أبو العباس وسواهم كأبي علي ابن الشراد والقاسم ابن الشاط، وكل زقاق من العدد المذكور تنغلق عليه دروب، وعلى تلك الدروب بيات تجري عليهم الجرايات إلى غير ذلك.

[الانصاري، احتصار، ص 33-34]

91 ■ التراتب في المسجد

سؤال عمّن حجر موضعاً في المسجد.

جواب الفقيه الأجل ـ وفقه الله ـ في رجل عمد إلى قبلة جامع وحجر فيه لنفسه موضعاً يصلي فيه دون الناس، والجامع ضيق وقد دخلت عليه أعصار لم يفعله قط غيره، فأضر فعله بالمصلين وغير شكل الجامع. بينوا لنا ما الجواب فيه أن رفع ذلك

إلى حاكم وأثبتوا عنده الضرر بهم في صلاتهم، والتضييق عليهم وتغيير الجامع وفعله ذلك استعلاء على الناس وكبرياء تؤجروا على إقامة الحق إن شاء الله.

الجواب: أرى، والله الموفق، أن تغيير مثل هذا واجب على من له أمر ولا يتركه بحال إلا من عجز عن ذلك لخوف فاعله، وذلك المغرور يلام، وهذا أصل ما سكت أهل العلم والدين عن تغيير المقاصير التي اتخذها ذوو السطوة من ملوك الإسلام مع إنكارهم أمرها ومنعهم الصلاة فيها على ما بسط في كتب أئمتنا، ولم تكن زمن أئمة الهدى الخلفاء الراشدين، وإنما اتخذها بعضهم لخوفهم على أنفسهم حين قتل من الخلفاء من قتل عند خروجه للصلاة، وخرج من خرج وهذا له عذر، وبعضهم أيضاً تكبروا عن الاختلاط بالناس. وكل هذا ضداً لما شرعه الله في المساجد من تعظيمها وإباحتها للناس كافة، ولزوم التواضع فيها والتذلل لقوله تعالى: ﴿سواء العاكف فيه والبادي﴾ وإن كان هذا وارداً في مسجد مكة، وقد أجمع المسلمون أن حرمة المساجد وحقها كذلك في أنه لا يمتلك أحد منها شيئاً ولا يحجره على الناس وأن جميعها مباح لجميع الناس.

[عياض، مذاهب، ص 309]

92 ■ **الأملاك**(*)

يشهد من تسمى أسفل هذا العقد من الشهداء أنهم يعرفون أحباس حمود بن خلف بن أبي مسلم الصدفي والد الفضل ويوسف، ويعلمون أن هذه الأحباس محبسة على يوسف وعقبه، وأن عدة هذه الأحباس المذكورة: الدار التي بمقبرة الزقلو مع الحانوتين المتصلين بها، حد جميعها من القبلة والشرق: الزقاق الهابط منها إلى مسجد ابن الخنشية، ومن الجوف دار إدريس بن عطاف القرار ومن الغرب الزقاق الطالع منه إلى مسجد المقبرة المذكورة. ومن هذه الأحباس: الثلاثة الدور المتلاصقة بعضها ببعض مع الجنينة التي في ظهورهم بحومة مسجد ابن علا قومه، وحد جميعهم في القبلة جنان المساكين ومن المشرق دار ورثة الأصيلي، ومن المغرب دار ابن وشقون، ومن الجوف الزقاق الكبير فيه تشرع أبوابهم، ومن الأحباس: الدارين المتضامين مع المصرية التي هي ملصقة بهما على باب الدرب حد جميعهم من القبلة دار الزُّهيلي ومن المشرق دار ابن الحانية مع الدرب غير النافذ من الجوف دار ورثة

(*) عقد أحباس أسرة الصدفي بسبتة.

البطليوسي، ومن الغرب الدرب غير النافذ وفيه تشرع أبوابهم، وهذا الدرب الخارج منه إلى مسجد يوسف ابن أبي مسلم ومن هذه الأحباس الفرن الذي لمسجد يوسف بن أبي مسلم، حد جميعه من القبلة والغرب الدار المعروفة باسم ابن القرطبي، ومن الجوف حمام ابن القرطبي، ومن المشرق الزقاق الهابط منه، والخارج إلى مقبرة السوق، وفيه يشرع بابه، ومن هذه الأحباس الحانوت التي بسوق الحجّامين بمقربة من مسجد المقبرة المذكورة، وحد جميعه من القبلة والشرق فندق أحمد بن إبراهيم الزيات، ومن الغرب حانوت أحباس المساكين، ومن الجوف: الزقاق الخارج منه إلى مقبرة السوق وفيه يشرع بابه، ومن هذه الأحباس: الحانوتان الملاصقان لسوق الشقاقين بباب حانوت ورثة ابن الشيخ. ومن القبلة الشارع الطالع منه إلى سوق العطارين. وفيه يشرع أبوابها ويعلمون أن هذه الأحباس المذكورة فوق هذا حبس على يوسف وعقبه. ويعلمون أن ليس لبني البنات من عقب يوسف فيها حق ولا دعوى ولا حجة، ويعلمون أنه لم يبق من عقب يوسف بن حمود بن خلف المحبس حاشا فاطمة بنت محمد بن يوسف بن حمود، ومريم ابنة عمها حمود بن يوسف ابن أبي مسلم وأنهما آخر العقب من يوسف المذكور. وأنه متى حدث موت هاتين المرأتين المذكورتين فاطمة ومريم فمرجع هذه الأحباس المذكورة المحدودة فوق هذا على بني أعمامهم من بني الفضل بن حمود بن خلف ابن أبي مسلم. وهم أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الفضل بن حمود ابن أبي مسلم، وحسن وحسين ومحمد بنو علي بن حسين بن الفضل بن حمود بن خلف بن الفضل، وأخوه حمود بن خلف بن حسين بن الفضل بن حمود بن خلف هم أولى الناس بهذه الأحباس المذكورة وأقربهم إليها، فإذا انقرضوا فمرجع هذه الأحباس إلى بنيهم من بعدهم وبني بنيهم. وعلى ذلك كان أصلها في التحبيس المذكور. كل ذلك في علم من شهد بذلك ومبلغه. وكانت شهادتهم هذه إذا سئلوا عنها فقاموا بها، وذلك في انسلاخ شهر ذي الحجة من سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة. محمد بن غازي الحسني وزكرياء بن هارون القضاعي، وعلي بن يحيى بن عبد الله اللخمي.

وشهد أبو بكر بن علي القيسي وعلي بن الحسن الكندي وحماد بن أحمد الأنصاري، ومنصور بن علي الأزدي على إشهاد عبد الجبار بن مسعدة على شهادته في التخليص على شهود الأصل الثلاثة المذكورين.

[عياض، مذاهب، ص 193-195]

وبفاس العتيقة داخل سورها جناين ورياض ذوات أشجار ورياحين في دار الكبراء وبيوت الأعيان، وبها أرحاء كثيرة دارة على الماء. قال السلالجي: تقارب أربعمائة رحى، وبكل من فاس القديمة، وفاس المجددة المسماة بالبيضاء وحمص، الجوامع والمساجد والموآذن والحمامات والأسواق. فأما المدارس والخوانق والربط فما خلت صحايف حسنات أهل المغرب من أجورها، إلا النزر اليسير جداً، وبفاس العتيقة مارستان، وعمائر العتيقة ـ كما قدمنا القول فيه ـ بالأجر. فأما المتخذات فغالبها بالقالب من نسبة أسوارها وسقوفها بالأخشاب وربما قرنصت بعض السقوف بالقصدير والأصباغ الملونة، وتفرش بالرخام دياراتهم وبالزليج وهو نوع من الآجر كالقاشاني بأنواع الألوان الأبيض والأسود والأزرق والأصفر والأخضر وما تركب هذه الألوان، وغالبه الأزرق الكحلي ومنهم من يتخذ منه وزرات لحيطان الدور، وإما دور هؤلاء فتفش بآجر يسمى المزهري. ولأهل فاس ولعٌ ببناء القباب، فلا تخلو دار كبيرة في الغالب من قبتين أو أزيد وصدرة تفسير أبنية دورهم: مجالس متقابلة على عمد من حجر وآجر ورفارف مطلة على صحن الدار، وقدامها طفافير يجري إليها الماء ثم يخرج إلى بركة في وسط الصحن وتسمى البركة عندهم صهريجاً. وغالب أعيانهم يعملون لهم حمامات في بيوتهم، انفة من الدخول مع عامة الناس، لأن حماماتهم صحن واحد لا خلوة فيها تستر بعض الناس من بعض، ولهم تأنق في البناء وهم لا تقصير بهم عن الغاية فيه.

[العمري، مسالك، ص 116-118]

الفصل الثالث

عالم الحِرف

فنزل بها من سادات الناس وجراثيمهم الجم الغفير، وأورثوها أعقابهم إلى أن كان من أمرهم ما كان، وأهلها على أربعة أجناس، الجنس الأول بنو هاشم دخل إليها منهم الجم الغفير من الحجاز واليمن والعراق والشام ومصر وبرقة وإفريقية والمغرب الأقصا، الجنس الثاني دخل إليها من سادات العرب وجراثيمهم ومواليهم الجم الغفير من جميع البلاد التي ذكرنا، الجنس الثالث دخل إليها من برابر المغرب وإفريقية الجم الغفير، الجنس الرابع أهلها الذين دخل عليهم المسلمون، منهم من أسلم واستقر بموضعه ومنهم من سبي عند الفتح واستقر بها وبها بقية عقبه، ومنهم من أسلم بعد الفتح أو سبي بعد الفتح، واستقر بها عقبهما، وهاذا الصنف على أجناس، منهم الروم، والجلالقة، وقشتالة، وراغون البرمدي والغريقين والينير، والطوطين، من الأمم القديمة، ومنهم أهل باريس مدينة مستقر طاغية أفرانصيص المنسوب إلى فرنصية، ومنهم عجم رومية، ومنهم من كان من اليهود مستقراً بها قبل الفتح وأسلم عند الفتح أو بعده أو دخل إليها بعد الفتح وأسلم.

ثم إن أوصاف أحوال أهلها في استقرارهم بها، أما بنو هاشم وقريش وبنو إسماعيل وبنو قحطان فإنهم احترفوا في الحلول بها الحرف التي ليست بخاملة نحو تدريس العلم والتوريق على الكراسي وتحمل الشهادة والنساخة للكتب وتعليم الصبيان وإمامة المساجد والوقوف عليها من نحو إصلاح وقبض كراء وولاية نظارة وحسبة وكتابة عند الملوك ووزارة وولاية الأمور الصالحة، ومن احترف منهم فاحترف الفلاحة وخدمة أجنات غلة وغرس ونسج حرير وبيعه غير منسوج وطيه وبيع بز، وتسبب بجلبه، وبيع عطر، وسبك شمع، ونسج غزل الكتان، وبيع لبن البقر لمن

(*) أدرج مؤلف **بيوتات فاس** هذا الاستطراد المتعلق بالأندلس، بحكم وجود عدد من الأندلسيين بفاس.

يمخضه، ومن تدقع منهم ببيع الفاكهة والخبز والخضر، وهاذا يخص منهم أهل الحسب والحياء، وأما أهل التصرف والشورا فإنهم يدخلون في عداد الجيوش من أهل الحل والعقد.

وأما البربر فإنهم احترفوا بجلب البقر والقمح والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والملح والأعواد وخدمة الفحم والخشب ونحو ذالك، وأهل الحاضرة منهم احترفوا ضفر الحلفة، وخدمة الأوعية أي السلل للزرع، وفتل القنب والمحاريث والبرذاع للبهائم والحبال والشطاطيب لكنس الديار وصيادة الطيور للأكل، والحملان في الأسواق، وحملان الزرع إلى الديار وبيعه في الأسواق، وخرز الدلاء وجلب الماء والبناء وطبخ الجير والجبص ونحو ذالك.

وأما من أسلم من أهلها فمن كان منهم في البادية فاكتسبوا البقر والغنم والحرث والعسل، وأهل الجبال منهم كانوا يغرسون الأجنات والفواكه وقطع الخشب وطبخ الفحم، ومن ولي البحر منهم كانوا يجلبون الحوت والسردين ويصنعون السفن وأاالاتها إلى غير ذلك.

وأما الموالي فأما من كان بالحاضرة منهم فكانوا يحترفون بالدباغة والحياكة والخرازة وبيع النعال المخروزة وبيع الحياك والجلاليب ونسجها والضرب بالطبول والبنود والحجامة وحمل الموتا وحفر قبورهم ودواء المرضا وعلاج الجرح والمرض وطحن برحا وخرط عود والقيام بالمساجد والأذان بها ورصد وقت، وبيع لحم، ونجارة خشب وعظم سرج، وصنع كسوة جياد، وسرير مكحلة، وخدمة فخار وغيره، وسبك حديد وألة الحرب، وصنعة نحاس، ومبيت بالأسواق بالليل، وحرس الفنادق، وتسمير البهائم، وحمل السلوع من بلد إلى بلد.

وأما من أسلم من اليهود فاحترف بخياطة الملف والثياب وضفر القيطان الذي يخاط مع الثياب، ونسج العقد ونسج قلنسوة وتبطينها وصبغها وتصفيفها، وحجامة، وبلاجة، ودلالة بالأسواق وبيع لبن ممخوض وإصلاح نعل مخروز.

وأما الموالى منهم فاحترفوا طبخ الخبز والسفنج والشواء وصنعة القدور للطبخ وبيعها وعصر الزيت وحمله، والصابون، وبيع ملح وحوت وشحم، وصناعة فانيذ، وبيع أدوية وعشب وتسفير كتب، وتجبيص الرباع وتزويق الخشب وتزليج الرباع

وصناعة منسج للحياكة، وصناعة الصفر، وصباغة، وخدمة حمام، وسقي ماء، وسبك فداويش وشعرية وثريد ومقروط ورغائف بقصد البيع، وبيع صوف وكتان وأآلات الطرب والتغني بها، والضرب للدنانير والدراهم وحلي النساء، وخرط مرجان وبيعه، وكراء أواني البنائين وحفر بير وتصفية معدن، وخدمة الرخام.

والعرب الذين دخلوا إليها استقر أكثرهم بالحواضر، وأما البربر فمن كان من أهل الحاضرة استقر في المدن، ومن كان من البادية استقر في القرا، وأكثر جيوشها كانوا من العرب الذين دخلوا إليها إلى أن رجع أمرهم إلى أمراء المغرب.

[ابن الأحمر (؟)، بيوتات، ص 23-25]

95 ■ حَاكة مكناس

وهي من عز بلاد المغرب لها أنظار واسعة، وقرى عامرة، وعمائر متصلة، تشقها الأنهار والمياه السائحة والعيون الكثيرة، وتطحن عليها الأرحية، وتحم بها الحمامات، إلا أن في صبيانها دعارة وسفاهة لأنهم أكثرهم حاكة يصنعون أشغالهم في بيوتهم، فإذا خرجوا إلى الفضاء الواسع حركتهم طباعهم الذميمة، فلا يعرفون إلا تجرد الشررة، سيما من كان منهم يجد زعامة في نفسه أو نجدة في بدنه.

[مجهول، استبصار، ص 188]

96 ■ وجود الحنطة في العصر الموحدي؟ (*)

وقرئت البيعة الإشبيلية وأنشدت الأشعار، وكثر الفرح والاستبشار، وخطب الخطباء وافصح الأدباء النثر والنظم وعمت المسرة نفوس الوافدين وأنزلوا منازل الترحيب والتقريب ووردوا موارد الإحسان، وضيفوا بأنواع التضييف على مراتبهم ومنازلهم وفرشت الديار لهم، والبر يجمعهم ويشملهم، وقد كان الناس طال عهدهم بهذا الفتح الأندلسي الذي تصغر عنه الفتوحات، فشملت المسرات كبيرهم وصغيرهم ولم يبق سوق من الأسواق إلا جمع أهلها للنزاهات وابتاعوا رؤوس البقر

(*) خلعت سبتة وإشبيلية الدعوة الموحدية في عهد المأمون، ثم بايعت المدينتان ابنه الرشيد.

والغنم والفواكه وخرجوا إلى بحائر الحضرة وذلك على ترتيب الأسواق وأهل الصنائع. . .

[ابن عذاري، بيان (موحدون)، ص 344-345]

97 ■ الصوفية وموضوع الأجرة(*)

وقد بلغني كتابكم، وذكرتم فيه حالكم من قلة الراتب وعدم انصافكم فيه. وانكم رجعتم تخيطون في دار الصنعة ثياب أولئك الناس. ولن تتشاغل اليوم بشيء أفضل من ذلك. فنعم الفعل! وحبذ الشغل!.

ويا أخي، ضاقت الأسباب عليكم، وبلغ من ضيقها أن رجعتم تتشاغلون بأمر حذّر منه أهل الورع والدين، وجعلوا متعاطيه في عداد الظالمين، مع تمكنكم من غيره: بأن تأخذ ما تخيطه من البلد البالي حيث الرعية والعامة، وتتشاغل به في موضعك. فإن المعاش عندكم، كما سمعت، قد تحرك في التجارات والصناعات. فما أسرع ما عمل فيك ما كنت ذكرته لك من الظلام الذي يصيب من يصبح ويمسي على وجوه أولئك الظلام. حتى حملك ذلك على إعانة الظلمة في أمور دنياهم.

وقد جاء رجل إلى ابن المبارك فقال له: إني خياط؛ فربما خطت شيئاً لبعض وكلاء السلطان. فماذا ترى؟ أكون من أعوان الظلمة؟ فقال: لست من أعوان الظلمة، بل أنت من الظلمة! إنما أعوان الظلمة من يبيع منك الإبر والخيوط. وغير هذا مما هو معروف عنهم.

وقد كان لك في الراتب الذي تأخذه هنالك، وإن قل، كفاية. ولكن ذلك كله لا بركة فيه. وكيف يبارك في الأشياء الخبيثة؟ وذلك كله أمر مجرب. وما أشبه ذلك الحرام إذا حصل في جوف الإنسان إلا بجهنم لو ألقي فيها ما عسى أن يلقى الا وتقول: هل من مزيد؟.

لكن كنت وافقتكم على ذلك الراتب لأجل الضرر الذي كان أصابكم من كونكم تبقون الأيام والليالي لا تذوقون فيها طعاماً. فكان ذلك عندي أعظم عذر. فلا جرم ارتقع حالكم بعض ترقيع. فلو كنتم حين تتناولون ذلك، تجدون مرارته، لم

(*) الرسالة، على غرار جل رسائل ابن عباد «الكبرى» و«الصغرى»، موجّهة إلى يحيى السراج.

تحبوا أن تستكثروا منه، ولجعلتموه في مداواة علة قلّتكم بمنزلة الصبر السقطري. ولكنتم وجدتم حلاوته التي هي مضادة لحلاوة الإيمان. والضدان لا يجتمعان.

[ابن عباد، **رسائل**، ص 159-160]

98 ـــــــــ ■ الولي والحِرَف(*)

كان رحمه الله أحد الأفراد العباد، والأولياء الأتقياء، الذين علا قدرهم وفاق، وطبق ذكرهم الآفاق، وممن طار صيته كل مطار، وأخذت جلالته بالأسماع والأبصار، وكان للمرية الشفوف به على سائر الأقطار، شمس الولاية وبدرها، وأوحد الأندلس وصدرها. وكان ـ رحمه الله ـ مشهوراً بالولاية، مرفوعاً له في الدين والصلاح أرفع راية، جارياً في التبتل والانقطاع إلى الله ـ تعالى ـ إلى أبعد غاية، مع كمال العلم والمعرفة، والتحلي من الفضائل بكل حلية حميدة الصفة، ورسوخ القدم في علوم الحقيقة، والجري في سبيل سنة الصوفية على أقوم طريقة، والمشاركة في فنون الآداب، والأخذ من كل علم بلباب اللباب، هكذا وصفه ابن خاتمة، وقال: إنه كان عالماً عاملاً، فقيهاً أديباً، شاعراً محسناً، سهل العبارة، لطيف الإشارة، صوفياً سنياً، طاهراً سرياً، عالي الهمة، كريم العشرة، صادق الفراسة، عظيم الجاه في القلوب، سامي الرئاسة، شديد الالتزام لمذهب مالك ـ رضي الله عنه ـ، لا يسمح من مخالفته في شيء، قلما لازمه أحد إلا وحسنت حاله في دينه ودنياه ولا دعا له إلا ظهرت بركة دعائه في عقبه وعقباه، وكان حصن بلفيق وما يليه، هو موضع انتجاعه واستغلاله، إذ كان مملوكاً له كثير من أملاك ذلك الصقع وأحقاله، فصار بذلك نجعة للفقراء والمساكين، وكعبة للأولياء والصالحين، يقوم على من قصده ببره وارفاقه، ويكفيه المؤن حتى ينسيه ذكر آفاقه، فكان إليه حج كل حاج، وزيارة ذوي الآمال والحاج، ومع ذلك فكان يقرىء جاهلهم القرآن العظيم، ويعلمه من أمور دينه ما هو جدير بالتعليم، ويصرف بطالهم فيما يناسب حاله من الأشغال، ويحضهم على اتخاذ الحرف وملازمة الأعمال، ويحمل من صحبه من أمر دينه ودنياه على أحسن الأحوال، وكان هناك ذا أرض اريضة، وثروة عريضة، فبسعة ما كان يفيض عنه من العطاء،

(*) نبذة من ترجمة أبي إسحاق ابن الحاج البلفيقي، المعروف بمراكش بـ «سيدي إسحاق».

ويعم رفده من قصده من كافة الأنحاء، صار متهماً عند بعض السفارة الضعفاء، بصناعة الكيماء، كما رمى بذلك كثير من الأولياء.

قال ابن خاتمة: حكى لي شيخنا حفيده القاضي أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم ابن محمد بن الشيخ الولي أبي إسحاق هذا ـ رضي الله عنه:

قال: نزل بالشيخ أبي إسحاق بن الحاج ـ رضي الله عنه ـ بعض الفقراء السفارة، وكان كلما قصده أحد، أنزله وقام عليه برفده وضيافته ثلاثاً، ثم يسأله عن حاجته، فإن كان ممن حاجته في المقام وقام، وإلا قضى حاجته وانصرف، فسأل هذا الفقير عن قصده ـ على العادة، فقال له: إنه بلغني أنك تعرف الكيمياء، وأريد أن أصحبك وأخدمك ـ على أن تطلعني عليها، وتعلمني إياها، فقال له: نعم، فلما كان من الغد استصحبه حتى وقف به على أرض غامرة، وشعراء ملتفة قد شرع بناسه وعبيده في فتحها وتصييرها احقالاً للزراعة، وأملاكاً للاستغلال، فقال له الشيخ أبو إسحاق: هذه كيمياء إبراهيم، فإن شئت تعلمها، فتناول فأساً من الفؤس، وخذ مكانك من الخدمة.

[المقري، أزهار، ج 4، ص 105-107]

الباب الخامس

التمدين وتراجع التمدين

الفصل الأول

التوسع الحضري

99 ■ فاس تحت حكم مغراوة

هو دوناس بن حمامة بن المعز بن علية المغراوي، ولي بمدينة فاس وأحوازها وجميع ما كان بيد أبيه من أعمال المغرب ومدنه، وكانت أيامه أيام دعة وهدنة ورخاء كثير، وفي أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها وقصدها الناس والتجار من جميع النواحي والبلاد، فأدار دوناس السور على الأرباض، وبنا المساجد والحمامات والفنادق، فصارت حاضرة المغرب، ولم يشتغل دوناس من يوم ولي إلى أن توفي إلا بالبناء والتشييد، وتوفي دوناس بمدينة فاس في شهر شوال من سنة اثنتين وخمسين وأربعمئة، فولي بعده ولداه الفتوح وعجيسة، فكان الفتوح على عدوة الأندلس، وعجيسة على عدوة القرويين، وكانت أيام دوناس بن حمامة اثنتين وعشرين سنة تنقص قليلاً.

[ابن أبي زرع، قرطاس، ص 111]

100 ■ مراكش في عهد الموحدين

وفي سنة تسع وسبعين وخمس ماية أمر الخليفة أبو يعقوب رحمه الله بتوسعة مدينة مراكش وهدم سورها الأول وإقامة سور آخر.

وذلك لما دانت لأمير المؤمنين المغرب والأندلس وإفريقية وملك ملوكها وهتك شركها وشريكها واجتمع في طاعته جميع أهل العدوتين طراً - إلى أحواز طرابلس براً وبحراً - انجلى الناس إلى مراكش من كل مكان، وتفاخروا في سكناها بحسب القدرة منهم والإمكان، فصارت أوسع البلاد معاشاً وأكثرها خلقاً وأربحها تجارة فضاقت بالناس فلم يجدوا موضعاً للبناء ولا محلاً للسكنى وكان الأمير أبو يعقوب أمر القبائل هسكورة وصنهاجة أن يرتحلوا من بلادهم إلى سكناها بأهلهم وبنيهم فامتثلوا ذلك ووصلوا ولم يجدوا حيث ينزلوا فشكوا ضيقتهم وحيرتهم فنظر أمير المؤمنين في ذلك فركب السيد المنصور ابنه أول يوم ربيع الآخر ومعه شيوخ الموحدين وعرفاء البنائين

ينظرون تحت نظره حيث يكون هذا الاتساع والأمر المطاع فاتفق رأيهم على زيادة مدينة متصلة من جهة القبلة فرجعوا إلى الخليفة وأعلموه بذلك فرأى رأيهم وأمضى سعيهم وأمر العبيد والرجال بهدم السور القديم بجهة باب الشريعة وكان الابتداء في بناء الأساس المذكور صبيحة يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الآخر من السنة المؤرخة واتصل بناء السور المذكور وبناء باب الشريعة مدة من أربعين يوماً حتى كمل وجاء على ما قدر فيه وأمل.

[ابن عذاري، بيان (موحدون)، ص 153-154]

الفصل الثاني

الاضطراب

101 ■ بني تاودا بين المرابطين والموحدين

والطريق من مدينة فاس إلى بني تاودا مرحلتان. وهذه المدينة بناها أمير من قبل المُلثم. وكانت مدينة قائمة بذاتها، لكثرة زروعها، ومفيد غلاتها، وغزر ألبانها وسمنها وعسلها. وأسواقها عامرة، وخيراتها وافرة. وكانت على مقربة من جبل غمارة. وكانت بمكانها شبه الثغر، سداً مانعاً من طغاة غمارة العاثين بتلك النواحي، المغيرين على جوانبها. وبينها وبين طرف جبل غمارة ثلاثة أميال. وبين بني تاودا وفاس برية، يشق في وسطها وادي سبو. وبين وادي سبو في طريق بني تاودا وبين فاس عشرون ميلاً. ويسكن هذه البرية قبائل من البربر يسمون لمطة. وحد عمارتهم من مدينة تاودا إلى وادي سبو المذكور، ويمتدون بالعمارة إلى قرية عكاشة. وبين هذه القرية وبني تاودا يوم. وبينها وبين مدينة فاس يومان. وهي أول مدينة من مدن الغرب التي حل بها الفساد، ونزل بها التغيير، واستأصلها المصامدة، وهدموا أسوارها، وصيروا قائم مساكنها أرضاً. ولم يبق من هذه المدينة المنسوبة لبني تاودا إلا مكانها. وقد تراجع إلى مكانها نحو من مائة رجل، فعمروها، وزرعوا في أرضها، لطيب ترابها، ونمو زروعها، وجودة حنطتها.

[الإدريسي، **نزهة**، ج 1، ص 248-249]

102 ■ خراب أغمات(*)

قلت فأغمات، قال بلدة لحسنها الاشتهار، وجنة تجري من تحتها الأنهار، وشمامة تتضوع منها الأزهار، متعددة البساتين، طامية بحار الزياتين، كثيرة الفواكه

(*) تظهر دلالة هذا النص بالمقارنة مع نص سابق (رقم 60) يصف ازدهار المدينة في عهد الدولة المرابطية.

والعنب والتين. خارجها فسيح، والمذانب فيه تسيح، وهواؤها صحيح، وقبولها بالغريب شحيح، وماؤها نمير، وماء وردها ممدّ للبلاد وممير. إلا أن أهلها يوصفون بنوك وذهول، بين شبان وكهول، وخرابها يهول، وعدوها تضيق لكثرته السهول، وأموالها لعدم المنعة في غير ضمان، ونفوسها لا تعرف طعم أمان.

[ابن الخطيب، **مشاهدات**، ص 109]

103 ■ أبو عنان ومشروع سور موسى

ثم سافرنا إلى سور موسى من مجامع دُكَّالة، وهو حلق ذو شرفات وأبراج، بادي الانثلام والتشعيث غير حرز الغلق لجهل هذه الأمة المصحرة بالتحصين، وهو بعض ما يلجأ إليه أهل هذا الوطن المتكاثف العمارة، الجم الماشية، المنبث الحلل، الغاص على انفساح مداه بالراغية والثاغية والصاهلة والناهقة، البالغ عدد أزواجه لإثارة الأرض ومعالجة الحرث، ثلاثة آلاف زوج من أزواج الثيران تثير أرضه وتعالج حرثه، يُتحرَّم به عند الغارة الشعواء المصمئلّة يطرقهم بها عدوهم من بني الحارث وأحلافهم من سكان السهل والجبل فيسد عندها. وعلى ذلك فهم لحم على وضم ولقمة بين لحيين، وبخارجه سوق جامعة يحشر إليها الناس ضحى، ويتقاطرون من كل مرمى يمثلون في صعيد واحد، قد خيمت تجارهم وظلوا، ولا ينفض الجمع إلا مع انقضاء بياض يوم.

وقد كان رفع إلى السلطان المغري بالبناء وتخليد الآثار أبي عنان رحمه الله، خبر ما عليه الناس من إخافة عدوهم، واهتضام عرصتهم واستهداف عقوتهم، فأمر بارتياد محل لتأسيس مدينة، فاختير على غلوات منهم، محل أرضه صخر منطبق على تراب، يتأتى فيه اتخاذ الخندق غير مثلوم الشفا، بعيد المهوى، يبني السور بما يخرج منه من الثرى ويصون الأطباق المعدة للاختزان عن أضرار السماء، ويكون سطح الأرض على خمس قامات من منبع الماء. فشرع في البناء واستبعد الفضاء، ومثلت الأبواب العديدة، والأبراج المشيدة. وعاق عن إتمامها هجوم حمامه وانصرام أيامه، فرغب أهله في التنبيه على تكميل نقيصته واحتياز حسنته.

[ابن الخطيب، **نفاضة**، ص 74-75]

104 ■ تراجع رباط الفتح

وبعد وفاة المنصور أخذت هذه المدينة في التدهور حتى إنه لم يبق منها سوى العشر، فالقناة البديعة قطعت ودمرت أثناء الحروب التي شنها الملوك المرينيون ضد أسرة المنصور. والرباط اليوم في أسوأ حال لم يصل إليها قط. وأعتقد أنه من المتعذر جداً العثور فيها على أربعمائة دار مسكونة قرب القصبة وبعض الدكاكين الصغيرة، وفضلاً عن ذلك فهي مهددة باستيلاء البرتغاليين عليها. وفعلاً فإن جميع ملوك البرتغال السابقين صمموا العزم على غزوها علماً بأنهم إذا ملكوها سهل عليهم احتلال المملكة. غير أن ملك فاس زود هذه المدينة بالأقوات الوافرة وساندها بكل ما في مستطاعِه.

وقد ذهبت إلى الرباط فأخذتني الشفقة عليها، لما كانت عليه في القديم وما آل إليه أمرها الآن.

[الوزان، **وصف**، ج 1، ص 202-203]

105 ■ تراجع مراكش(*)

قلت فمدينة مراكش، قال فتنفس الصعداء، وأسمع البعداء، وقال درج الخلي، وبرج النير الجلي، وتربة الولي، وحضرة الملك الأوليّ، وصرح الناصر الولي. ذات المقاصير والقصور، وغابة الأسد الهصور، وسدة الناصر والمنصور. بعدت من المركز دارتها، وجرت على قطب السياسة إدارتها، وسحرت العيون شارتها، وتعبد الإباءة إشارتها، وخاضت البحر الخضم نذارتها وبشارتها. اقتعدت البسيط المديد، واستظهرت بتشييد الأسوار وأبراج الحديد، وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون، فسالت المذانب كصفاح القيون، وقيَّدت طرف الناظر المفتون، أدواح الشجر بها وغابات الزيتون. فما شئت من انفساح السكك، وسبوغ الشكك، وانحلال التكك، وامتداد الباع في ميدان الانطباع، وتجويد فنون المجون بالمد والاشباع. زيتها الزمن يعصر، وخيرها يمد ولا يقصر، وفواكهها لا تحصى ولا تحصر. فإذا تناصف الحر والبرد، وتبسم الزهر وخجل الورد، وكسا غدرانها الحائرة الحلق السرد،

(*) تخربت مراكش عند انتقال الحكم إلى فاس، بينما احتفظت هذه المدينة بمكانتها حين كانت مراكش عاصمة المرابطين والموحدين.

قلت انجز للمتقين من الجنة الوعد، وساعد السعد، وما قلت إلا بالذي علمت سعد. ومنارها العلم في الفلاة، ومنزلته في المآذن منزلة والي الولاة، إلا أن هواءها محكم في الجباه والجنوب، يحمى عليها بكير الجنوب، وحميًّاها كلفة بالجسوم، طـالبة ديونها بالرسوم، وعقاربها كثيرة الدبيب، منغصة مضاجعة الحبيب. وخرابها موحش هائل، وبعد الأقطار عن كثير من الأوطار بها حائل، وعدوها ينتهب في الفتن أقواتها، وجرذان المقابر تأكل أمواتها. وكانت أولى المنازل بالإغياء، لو أنها اليوم معدودة في الأحياء.

[ابن الخطيب، **مشاهدات**، ص 108]

الفصل الثالث

أزمة منتصف القرن14م

والجامع المذكور غير مزخرف كثيراً من الداخل، ومع ذلك فإن سقفه من الخشب مثل كثير من سقوف الكنائس التي رأيناها في إيطاليا. والواقع أن هذا الجامع من أبهى معابد العالم. لكنه اليوم مهجور لأن سكان مراكش تعودوا ألا يقيموا فيه غير صلاة الجمعة، ولأن المدينة قليلة السكان جداً لا سيما في الحي المجاور لهذا الجامع. وحتى الوصول إليه يتعذر كثيراً بسبب أنقاض الخرائب المتراكمة في الطريق. وكان تحت رواقه قديماً نحو مائة دكان للكتبيين لم يبق منها اليوم ولو دكان واحد.

إن ثلثي هذه المدينة المسكينة غير مسكون، والأراضي الفارغة فيها غرست بالنخيل والكروم والأشجار المثمرة لأن السكان لا يستطيعون أن يملكوا ولو شبراً واحداً من الأرض الصالحة للفلاحة خارج الأسوار لكثرة تعسف الأعراب. ويمكن أن نقول حقيقة، إن هذه المدينة شاخت قبل الأوان، ففي الوقت الذي يحرر المؤلف هذا الكتاب لم يمض على تأسيس مراكش سوى خمسمائة سنة، إذ بناها يوسف بن تاشفين . . . وخلف يوسف بعد موته ابنه علي، وخلف علياً ابنه إبراهيم، الذي ظهر في عصره إمام يدعى المهدي، وقد ولد ونشأ في هذه الجبال، فثار وجمع جنوداً كثيرين حارب بهم إبراهيم.

ولم يضر بمراكش من هذه التغييرات في الحكم أكثر مما أضر بها بنو مرين الذين استقروا بفاس وأقاموا فيها بلاط ملكهم وأرسلوا نائباً عنهم إلى مراكش. فأصبحت فاس عاصمة موريطانيا وجميع المنطقة الغربية. وقد تحدثنا عن المسألة بكيفية أشمل في المختصر الذي وضعناه لتاريخ الإسلام.

وفي القصبة أيضاً مدرسة في غاية الحسن، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة وسكنى مختلف الطلبة، تحتوي على ثلاثين حجرة، وقاعة في الطبقة الأرضية كانت تعطى فيها الدورس فيما سبق. وكان كل طالب مقبول في هذه المدرسة ينفق عليه ويكسى مرة في السنة، ويتقاضى الأساتذة مرتباً قدره مائة أو مائتا مثقال حسب نوع الدروس المطوقين بإلقائها. ولم يكن يقبل في هذه المدرسة إلا من كان يعرف مبادىء العلوم معرفة تامة. وهذه البناية مزخرفة بالفسيفساء البديعة، وحيث لا توجد فسيفساء تغطي الجدران الداخلية بزليج من الطين المشوي اللماع المقطع على شكل أوراق رقيقة أو بمواد أخرى بدل الفسيفساء، وذلك على الأخص في قاعة الدروس والممرات المسقوفة. وفناء المدرسة المشكوف كله مفروش بالزليج اللماع كالذي يستعمل في اسبانيا. وفي وسط المدرسة فسقية (خصة) منحوتة من المرمر الأبيض في غاية الجمال، لكنها منخفضة على عادة الأفارقة. وكان بالمدرسة قديماً حسبما سمعت عدد كثير من الطلبة، لكنهم اليم لا يتجاوزون خمسة طلاب مع أستاذ جهله بالفقه فاحش، ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالأداب وأقل من ذلك بعلوم أخرى.

ورغم قلة آثار الماضي الباقية بهذه المدينة فإنها تدل على الفخامة والعظمة السائدتين في عهد المنصور. ولم يبق مسكوناً في أيامنا هذه سوى قصر الأسرة الملكية، وقصر حرس الرماة الذي يقيم فيه الحجاب والمكلفون ببغال الأمير الحالي، أما سائر القصور فيعشش فيها الحمام والبوم والغربان وما شابهها. والبستان الذي كان من قبل في غاية البهجة أصبح اليوم مزبلة للمدينة. والقصر الذي كانت فيه خزانة الكتب استعمل جناح منه للدجاج وآخر للحمام. وأصبحت الخزانات التي كانت توضع فيها الكتب أقفاصاً لهذه الطيور.

وخلاصة القول أن مدينة مراكش فقدت شهرتها القديمة وغدت مضطربة على الدوام بسبب الأعراب كلما امتنع السكان من إرضاء أقل رغباتهم.

وما قلته الآن عن مراكش رأيت بعضه عياناً في الواقع، وقرأته أيضاً في تاريخ مراكش لابن عبد الملك المراكشي، وهو كتاب يقع في سبع مجلدات، وأثبته أيضاً في المختصر الذي كتبته لتاريخ الإسلام.

[الوزان، وصف، ج 1، ص 128-135]

107 ■ تراجع التعليم بفاس

في كل مدرسة أساتذة لمختلف العلوم، فهذا يلقي درسه في الصباح، وذاك في المساء، ويتقاضون جميعاً مرتبات حسنة أوصى بها مؤسس المدرسة. وكان كل طالب من طلبة هذه المدرسة في الزمن الماضي معفى من مصاريفه ولباسه مدة سبع سنوات، أما الآن فلم يبق له غير السكن، إذ خرب عدد كثير من الأملاك والبساتين التي كانت محصولاتها مخصصة لهذا الغرض أثناء حروب سعيد. ولم يبق اليوم سوى دخل بسيط يمكن من الاحتفاظ بالأساتذة الذين يتقاضى بعضهم مائتي مثقال، وبعضهم مائة، وبعضهم أقل من ذلك. ولعل هذا أحد الأسباب التي أدت إلى انخفاض القيمة الفكرية، ليس في فاس وحدها ولكن في جميع مدن إفريقيا.

لا يسكن في هذه المدارس سوى بعض الطلبة الغرباء عن المدينة، الذين تتكفل بمعاشهم صدقات أهل فاس ونواحيها. وإذا اتفق أن قبل فيها طالب فاسي كان وحيداً. وعندما يريد أستاذ أن يلقي درسه، يبدأ أحد الطلبة بقراءة النص، ثم يشرحه الأستاذ ويضيف إليه بعض تأويلاته الشخصية، منبهاً إلى ما فيه من صعوبات. ويتناقش الطلبة أحياناً فيما بينهم أمام الأستاذ حسب موضوع الدرس.

[الوزان، وصف، ج 1، ص 227]

108 ■ خراب سجلماسة

إن مؤسس هذه المدينة ـ حسب بعض مؤلفينا ـ قائد روماني ذهب من موريطانيا فاحتل نوميديا بأسرها، ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة، فبنى المدينة وسماها سِجِلُوم مِيسَى لأنها كانت آخر مد دولة ماسة. ولأنها كانت كالخاتم الذي يسجل نهاية فتوحاته، فحرف هذا الرسم بعد ذلك وتحول إلى سجلماسة.

وحسب رواية أخرى هي في الواقع رواية الشعب ورواية جغرافينا البكرى، فإن المدينة أسسها الإسكندر الكبير لفائدة المرضى والمعطوبين من جنوده.

بنيت المدينة في سهل على واد زيز، وأحطيت بسور عالٍ ما زالت بعض أجزائه باقية. ولما فتح المسلمون إفريقيا خضعت سجلماسة لملوك زناتة إلى أن طردهم يوسف بن تاشفين اللمتوني.

كانت سجلماسة مدينة متحضرة جداً، دورها جميلة، وسكانها أثـرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان. وكان فيها مساجد جميلة، ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤها من النهر، تأخذه ناعورات من واد زيز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة. وكان هواؤها طيباً، إلّا أن فصـل الشتاء بهـا كان شـديد الـرطوبـة، كثيراً ما يسبب النزلة للناس، وتمرض عيونهم في الصيف، لكنهم سرعان ما يشفون.

سجلماسة الآن خربة تماماً كما ذكرنا آنفاً، تجمع سكانها في القصور، وتفرقوا هنا وهناك في الإقليم كله. أقمت بهذه المدينة وإقليمها، وعقدت علاقات مع أهلها، لأن البلاد كثيرة السكان. وبقيت مرة سبعة أشهر بقصر المامون.

[الوزان، وصف، ج 1، ص 127-128]

- ابن أبي زرع، علي (؟) [ق. 14/8].
الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط، 1972.
- ابن أبي زرع، علي.
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، 1973.
- ابن الأحمر، إسماعيل [ق. 14/8].
أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن، وهو كتاب نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان، تحقيق محمد رضوان الداية، بيروت، 1976.
- ابن الأحمر، إسماعيل (؟).
بيوتات فاس الكبرى، الرباط، 1972.
- ابن الحاج النميري [ق. 14/7].
فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، تحقيق محمد ابن شقرون، د. م.، د. ت.
- ابن حوقل [ق. 10/6].
كتاب صورة الأرض، تحقيق ج. هـ. كرامرز، ليدن، 1938.
- ابن حيان [ق 11/5].
المقتبس، تحقيق عبد الرحمان الحجي، ج 3، بيروت، 1983.
- ابن الخطيب، لسان الدين [ق. 14/8].
الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد الله عنان، 4 ج، القاهرة، 1974.
- ابن الخطيب، لسان الدين.
نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق أحمد المختار العبادي، الدار البيضاء، د. ت.

- ابن الخطيب، لسان الدين.

مشاهدات في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، الإسكندرية، 1983.

- ابن خلدون [ق. 14/8].

العبر، بيروت، 1983، 14 ج.

- ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي [ق 13/7].

كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، 1970.

- ابن عباد الرندي [ق. 14/8].

رسائل، بيروت، 1986.

- ابن عبد الرؤوف [ق. 12/6].

«رسالة في آداب الحسبة والمحتسب»، ضمن **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب**، تحقيق إ. ليفي بروفنسال، القاهرة، 1955، ص 67-116.

- ابن عذاري المراكشي [ق. 13/7].

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، ج 4، بيروت، 1967.

- ابن عذاري المراكشي.

البيان... قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، بيروت/الدار البيضاء، 1985.

- ابن غازي، محمد [ق. 14/8].

الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط، 1964.

- ابن القاضي، أحمد [ق. 16/10].

جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، 1973، 2 ج.

- ابن القطان، أبو الحسن [ق. 13/7].

نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، بيروت، 1990.

- ابن مرزوق التلمساني، محمد [ق. 14/8].

المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، الجزائر، 1981.

- ابن منظور [ق. 13/7].

لسان العرب، بيروت، د. ت.، 15 ج.

- الإدريسي، الشريف [ق. 12/5].

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، د. ت.، جزءان.
ـ الأنصاري، محمد بن القاسم [ق. 15/9].
اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1983.
ـ البادسي، عبد الحق [ق. 13/7].
المقصد الشريف والمنزع اللطيف، في التعريف بصُلحاء الريف، تحقيق سعيد أحمد أعراب، الرباط، 1982.
ـ البكري [ق. 11/5].
المسالك والممالك، جزء في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دوسلان، باريس، 1965.
ـ البيدق، أبو بكر بن علي [ق. 12/6].
أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، 1971.
ـ التفاشي، أبو العباس أحمد [ق. 13/7].
كتاب أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، القاهرة، 1977.
ـ الجزنائي، علي [ق. 14/8].
جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس، الرباط، 1967.
ـ الحميري، محمد بن عبد المنعم [ق. 15/9 ؟].
كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي)، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1980.
ـ الزهري [ق. 12/6].
«كتاب الجغرافية»، تحقيق محمد حاج صادق، **مجلة الدراسات الشرقية** (B.E.O)، 1968.
ـ عبد الباسط بن خليل [ق. 15/9].
«الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم»، ضمن روبير برانشفيك، **رحلتان غير منشورتين إلى إفريقيا الشمالية في القرن 14، عبد الباسط بن خليل وأدورن**، تحقيق وترجمة فرنسية، باريس، 1936، ص. 7-68.
ـ العبدري الحيحي، محمد [ق. 13/7].
رحلة، المسماة الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، 1968.
ـ العمري، أحمد بن فضل الله [ق. 14/8].
مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، الأبواب 8 إلى 14، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، [الدار البيضاء]، 1988.
ـ عياض، القاضي وولده محمد [ق. 12/6].

مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، 1990.
ـ الغبريني، أبو العباس [ق. 13/7].
عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، بيروت، 1969.
ـ الفاسي، محمد العربي [ق. 16/10].
مرآة المحاسن في أخبار الشيخ أبي المحاسن، فاس، ط. حجرية، 1906/1324.
ـ الماوردي، أبو الحسن علي [ق. 4-10/5-11].
تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، بيروت، 1987.
ـ مجهول [ق. 12/6].
كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985.
ـ المراكشي، عبد الواحد [ق. 13/7].
المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الدار البيضاء، 1978.
ـ المقري، أحمد [ق. 16/10].
نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968، 7 ج.
ـ المقري، أحمد.
أزهار الرياض في أخبار عياض، الرباط، 1978، 5 ج.
ـ المنوني، محمد.
ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، الرباط، د. ت.
ـ الوزان الفاسي، الحسن (ليون الإفريقي) [ق. 16/10].
وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، 1983، جزءان.
ـ الونشريسي، أحمد [ق. 16/10].
المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق بإشراف محمد حجي، [الرباط]، 1981، 13 ج.

تقديم 5

الباب الأول: التمدين وقضايا التأسيس

الفصل الأول: تعريفات 11
1 - في مصطلح المدينة 13
2 - في مصطلح المصر 13
3 - شروط المدينة حسب اس أبـي زرع 15
4 - شروط المدينة حسب ابن خلدون 15
5 - شروط المدينة: حسب ابن القاضي 18
6 - الأمصار في الآداب السلطانية 17
7 - كتابة تاريخ المدينة 20
الفصل الثاني: رواية التأسيس 23
I - الأسطورة 25
8 - فاس 25
9 - تطوان 26
10 - القصر الكبير 26
II - تعدد الروايات 27
● فاس 27
11 - رواية ابن أبـي زرع 27
12 - رواية العمري 29
● مراكش 30
13 - رواية الإدريسي 30
14 - رواية المراكشي 31
15 - رواية ابن عذاري 32
16 - رواية ابن أبـي زرع 32
● رباط الفتح 33
17 - رواية ابن حوقل 33
18 - رواية البيدق 33
19 - رواية المراكشي 34
الفصل الثالث: التمدين بين الإحداث والتطور التلقائي 35
I - النواة الأولى 37
20 - نكور 37
21 - سجلماسة 37

II ـ الأشكال الانتقالية **38**
22 ـ أصيلة 38
23 ـ درعة 39
24 ـ أجرسيف 40
25 ـ تازة 40
26 ـ مكناس 41
27 ـ القصر الكبير 43

الباب الثاني: المدينة والحكم

الفصل الأول: المدينة ككيان سياسي **49**
28 ـ خلافة قرطبة وفرض المذهب المالكي على أهل فاس 51
29 ـ أغمات: الحكم بالتناوب 52
30 ـ واقع الطوائف بالمغرب 52
31 ـ برغواطة بين العداء والتبادل التجاري 53
32 ـ في وجود العصبية بالأمصار 53
الفصل الثاني: المدينة والمراقبة المخزنية **57**
I ـ الدول الناشئة واحتلال المدينة **59**
33 ـ دولـة الموحدين وقضية مراكش 59
34 ـ أغمات تواجه الاحتلال الموحدي 59
35 ـ احتلال مدن سوس 60
36 ـ حصار مكناس 61
37 ـ المرينيون وإخضاع فاس 63
II ـ دار المُلك وتعدد القواعد **64**
38 ـ دار الملك والحاضـرة 64
39 ـ المدينة المخزنية: تأسيس فاس الجديد 65
40 ـ المدينة المخزنية: أحياء فاس الجديد 65
41 ـ كمين بقصبة مراكش 66
42 ـ الإقامة الملكية الصيفية: تازة 69
43 ـ قواعد المغرب 70
44 ـ القاعدة المحلية: تارودانت 71
45 ـ الأطر المخزنية: عمال يعقوب المريني 72
III ـ ترحال المُلك **72**
46 ـ حركة عبد المؤمن الموحدي إلى بجاية 72
47 ـ تنقل يعقوب المريني 73
48 ـ تنقل يوسف المريني 74
49 ـ الأفراك 75
50 ـ المحلة 78
الفصل الثالث: الانتفاضة الحضرية **81**
51 ـ قيام عامة مراكش ضد بني يوجان 83

52 ـ انتفاضة الطلبة بفاس 84
53 ـ قيام الفقيه أبي القاسم العرفي بسبتة 85
54 ـ ثورة فاس ونهاية الحكم المريني 86

الباب الثالث: جوانب اقتصادية

الفصل الأول: قطاعات ومجالات 95
I ـ محطات تجارية **97**
55 ـ السوس الأقصى 97
56 ـ سجلماسة: الازدهار الاقتصادي 97
57 ـ سجلماسة: باب السودان 99
58 ـ نول لمطة 99
59 ـ داي 99
60 ـ أغمات 99
61 ـ مليلة 100
II ـ الفلاحة في المجال الحضري **100**
62 ـ البصرة 100
63 ـ أغمات 101
64 ـ السوس الأقصى 102
III ـ الاقتصاد والبحر **102**
65 ـ موانىء الساحل الأطلسي 102
66 ـ سبتة: الرواج البحري 103
67 ـ سبتة: الصناعات المرتبطة بالصيد 103
68 ـ غزاة البحر ببجاية 104
IV ـ المراكز والتراتب الحضري **105**
69 ـ وثيقة موحدية حول النشاط الاقتصادي بفاس 105
الفصل الثاني: التقنين والتجهيز **107**
70 ـ تباين مستويات الدخل 109
71 ـ الماء وصيانة الأرقة 111
72 ـ المحتسب والسهر على سلامة أهل المدينة 114
73 ـ الأعمال الخيرية: المارستان 115
74 ـ الأعمال الخيرية: النزهار 116
75 ـ الأعمال الخيرية: صدقات روضة السبتي 117
76 ـ مداخيل الدولة 117
77 ـ جعرافية الجباية 118
الفصل الثالث: الاقتطاع الجبائي **121**
78 ـ الجباية والتعسف 123
79 ـ الضرائب غير الشرعية: إصلاح المريني 125
80 ـ نصيحة ابن عباد لعبد العرير الأول المريني 129
81 ـ الطريق المخوفة 131

الفصل الرابع : مسألة أمن السبل **133**
82 ـ السفر بين الحماية والابتزاز 135
83 ـ الخفارة 139
84 ـ تجارة السودان : الخطر والربح 139

الباب الرابع : البنية الاجتماعية

الفصل الأول: الأعيان **143**
85 ـ نخبة الحكم : بنو عثمان 145
86 ـ الشبكة التجارية العائلية : المقريون 147
87 ـ بيوتات العلم : العبادسة بمكناس 148
88 ـ بيوتات التصوف : بيت الشيخ صالح بآسفي 148
89 ـ الشرفاء : الصقليون بسبتة 150
الفصل الثاني : علامات النفوذ الاجتماعي **153**
90 ـ الأحياء 155
91 ـ التراتب في المسجد 155
92 ـ الأملاك 156
93 ـ الدور 158
الفصل الثالث : عالم الحِرف **159**
94 ـ الحِرَف والانتماء القبلي 161
95 ـ حاكة مكناس 163
96 ـ وجود الحنطة في العصر الموحدي؟ 163
97 ـ الصوفية وموضوع الأجرة 164
98 ـ الولي والحرف 165

الباب الخامس : التمدين وتراجع التمدين

الفصل الأول : التوسع الحضري **169**
99 ـ فاس تحت حكم مغراوة 171
100 ـ مراكش في عهد الموحدين 171
الفصل الثاني : الاضطراب **173**
101 ـ بني تاودا بين المرابطين والموحدين 175
102 ـ خراب أغمات 175
103 ـ أبو عنان ومشروع سور موسى 176
104 ـ تراجع رباط الفتح 177
105 ـ تراجع مراكش 177
الفصل الثالث : أزمة منتصف ق. 14م **179**
106 ـ خراب مراكش 181
107 ـ تراجع التعليم بفاس 183
108 ـ خراب سجلماسة 183
ـ بيبليوغرافيا **185**

المدينة في العصر الوسيط

يحاول هذا الكتاب أن يخاطب نوعين من المتلقين، فهناك عموم القراء الذين سوف يجدون، من خلال النصوص المقترحة، عناصر شيقة ومدخلاً حياً إلى ماضي المدينة: لوحات من النشاط الاقتصادي، أحداث معبرة، نماذج اجتماعية، وغير ذلك من المواد التي يعسر الحصول عليها دون بذل الجهد المضني عبر منعرجات مصادر الفترة المدروسة.

أما القارىء المتخصص، ونعني الطالب أو الباحث في مجال التاريخ الوسيط أو التاريخ الحضري، فإن محاورته تنطوي على أبعاد أخرى. لقد قادتنا تجربة التدريس والبحث إلى الشعور بضرورة وضع **ملفات توثيقية إشكالية** تجمع بين مجهود رصد النصوص وبين اقتراح قضايا من شأنها أن تغني المناقشات الدائرة ـ أو الغائبة ـ داخل حقل التاريخ الحضري. وبذلك قد نتفادى منزلق اختزال الظاهرة التاريخية في نماذج نظرية مبسطة لا تستند إلى ما يكفي من الاستشهاد والأدلة، ونتجنب في آن واحد ذلك المنزلق الآخر الذي يلغي فائدة الفرضيات والإشكاليات، ويختصر دور الباحث في العمل التوثيقي الصرف.

المركز الثقافي العربي